

٤٠٦٨٣

الكتابات

أو

خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الأول بعد الطوفان
إلى عهد الجمهوريّة بلبنان

تأليف
أمين الريحاني

الطبعة العلمية ليوستف صادر - بيروت سنة ١٩٢٨

893.718 R449

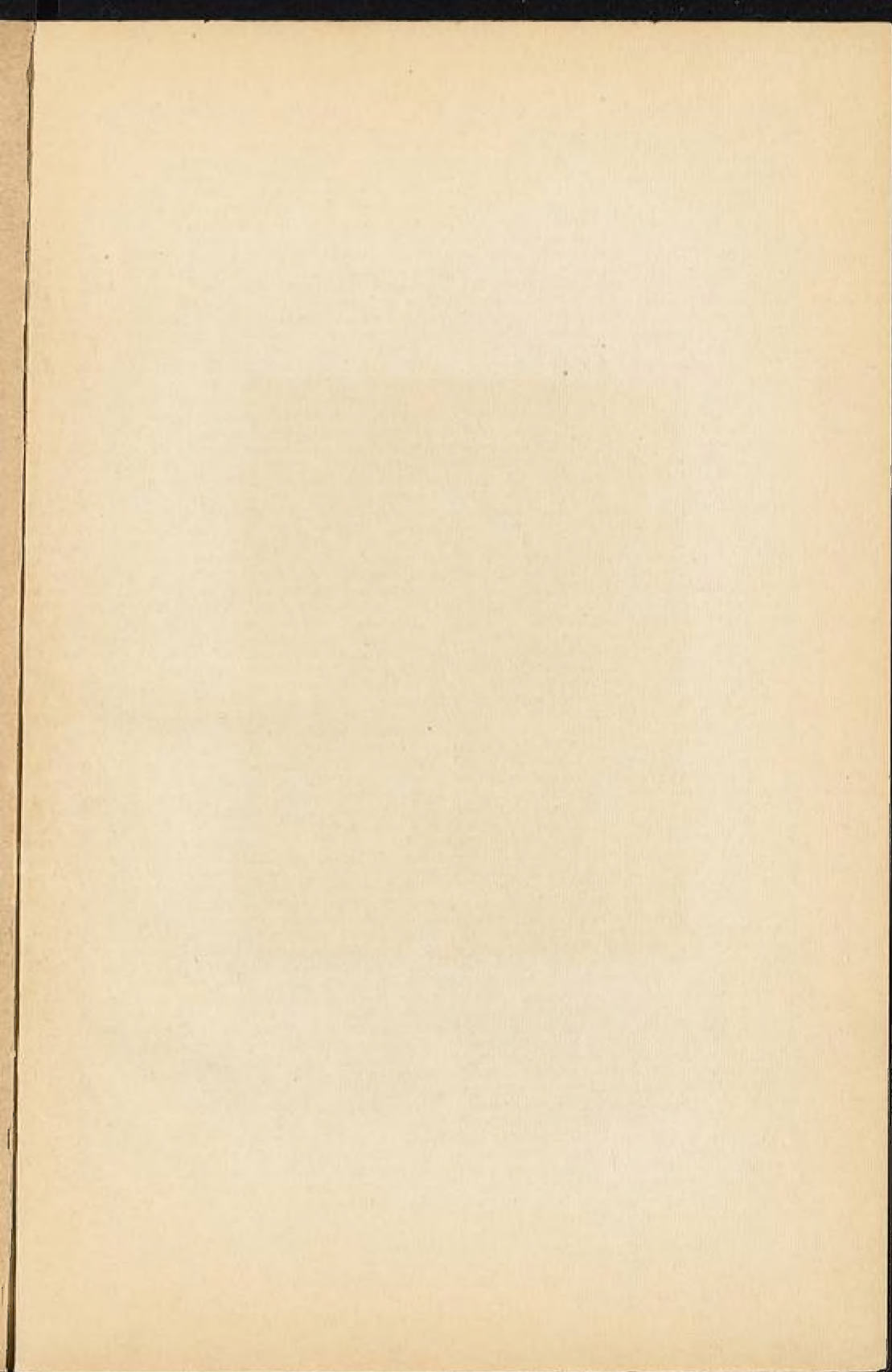
Columbia University
in the City of New York

LIBRARY

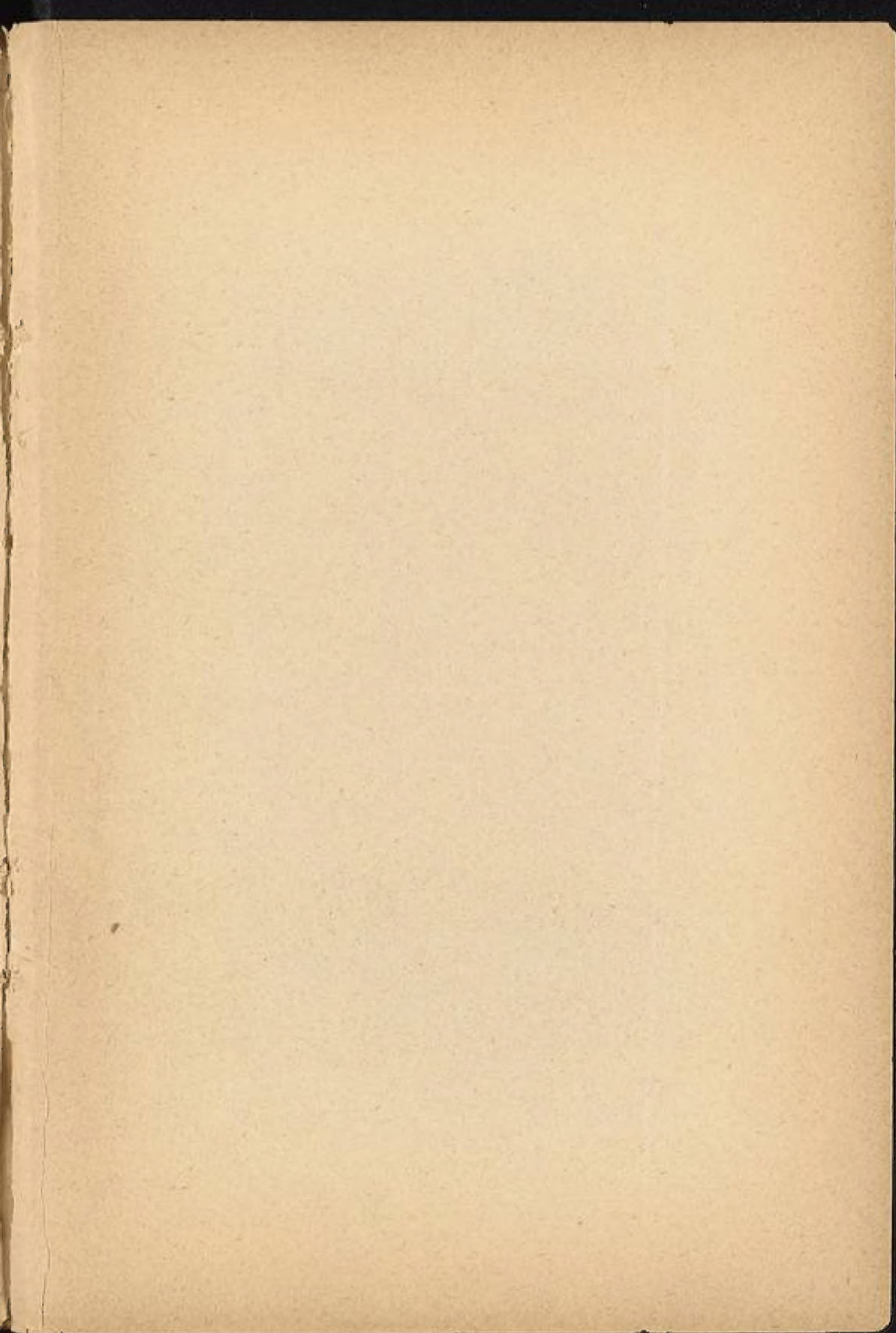


Bought from the
Alexander I. Cotheal Fund
for the
Increase of the Library
1896

AUG 1 1930



7685



الانكبات

او

خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الاول بعد الطوفان
الى عهد الجمهورية اللبنانية

تأليف
ابن الريحاني

Rihani, Ameen Fares
Al-mahabat ...

AL-DAR
YERREYED
YHZEED
Geth

30-62832

حقوق الطبع محفوظة لمجلة الكشف

893.718

R449

وقف المؤلف ربيع هذا الكتاب على

* انكشاف المنعم *

« لو كان صحيحاً ان ما يمكن عمله الان قد عمل في الماضي لما كانت بقاؤنا على الارض لازماً ، ولكن في اطراد الحياة فيها من الاعباء التي لا تطاق . . . وما فضل اولئك الذين يمجدون الماضي ويعتقدون ان اسلافهم بلغوا درجة الكمال ؟ وكيف يستطيعون ان يعيشوا أعزاء ، وجل همهم ان يتحصنوا في حصون التقاليد والعادات البالية ، وهم لا يشعرون بواجب في الحاضر ولا بأمل في المستقبل ؟ »

رابندراناث تاغور

« لا اريد ان أمر المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بني آدم ! قالوا : ان اباؤنا كانوا كذا وكذا . فعاشوا في خيال ما فعل اباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه اباؤهم من الرفعة لا ينبغي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعف . وكلما اراد الشرقيون الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا نرون كيف كان آباؤنا ؟ »

جال الدين الافغاني ،
قتله الامير شكيب ارسلان في كتاب :
حاضر العالم الاسلامي صفحة ٢٠٦

وقال احد شعراء العرب الاقدمين يعني على التغلبيين قعودهم عن
المكارم والمفاخر اكتفاءً بعلقة شاعرهم عمرو بن كلثوم :
الهي بني تغلب عن كل مكرمة فصيحة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها ابداً مذ كانت اولهم يا للرجال لشعره غير مسؤوم

« واحذروا ما نزل بالامم فيكم من المثلثات (العقوبات) اسوء
افعالهم . فتذكروا في الخير وفي الشر احوالهم ، واحذروا ان تكونوا امثالهم »
نهج البلاغة

« لا تقسروا اولادكم على اخلاقكم ، فانهم مولودون لزمان غير زمانكم »
عمر بن الخطاب

« ليكن ابناؤنا خيراً منا جسماً ، وعقلاً ، ومجتمعاً ، واخلاقاً »
المعهد القومي للتربية الاخلاقية
في ولايات اميريكة المتحدة

افرواني ابناء هذه ابلود ، سرلها وبيالها وساملها :

كثيراً ما نقرأ ونسمع ان تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الاجداد ، وبفأخر الاجداد .
فتعالوا نعيد النظر في اهم ما في التاريخ ،
تعالوا نزور الماضي الذي اهلانا عن كل مكرمة .
تعالوا نزور الماضي فتقصر اذ ذاك من ذكر الاجداد .

ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟
القوي منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبداً .
اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين من الالهواء .
اقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه
وقوافيه .

اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودون اذ
ذلك ان تنسوا الماضي

انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين .
 ولا تكلوا على احد في الدنيا او في الآخرة .
 ظفر الميت خيال لا يفيد ، وظفر الاجنبي من حديد .
 اذن ، ما حك جلدك مثل ظفرك .
 اذن ، تعالوا نفاهم ، فتآلف ، فتضامن ، فتتحد في سبيل
 الوطن بل في سبيل الحياة .
 تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

امين
 يحيى

الفرصة . لبنان .

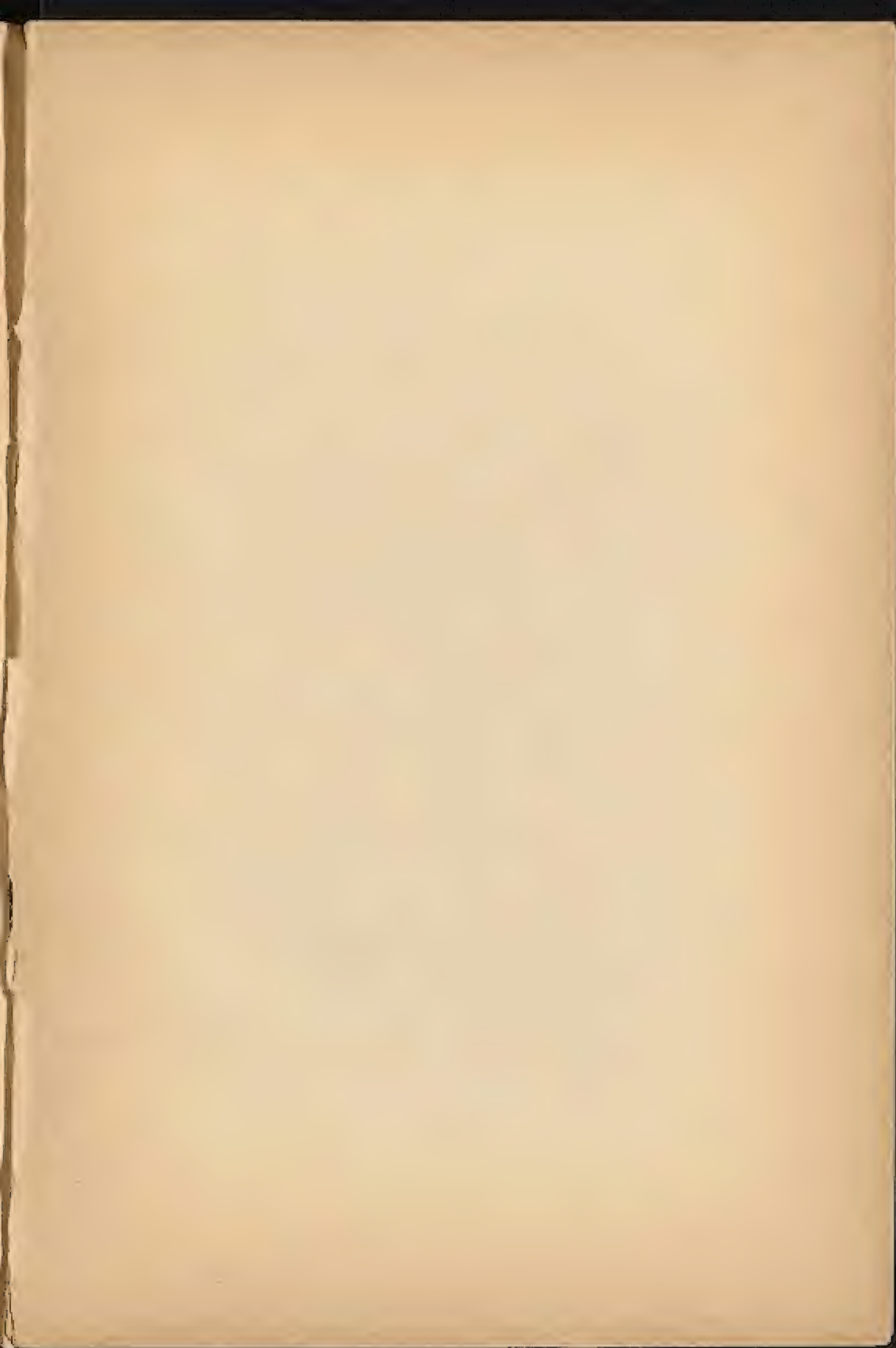
في ٢٠ يناير سنة ١٩٢٨

و ٢٧ رجب سنة ١٣٤٦

الفهرس

صفحة	
٠١	الفصل الاول سام وحام ويافت
٠٩	الفصل الثاني الاستيلاء المصري والاشوري
١٥	الفصل الثالث الاستعمار الفارسي
٢٠	الفصل الرابع الاحتلال السلوقي
٢٣	الفصل الخامس الاستقلال النبطي
٢٩	الفصل السادس بنو غسان والرومان
٣٤	الفصل السابع بابل العصبية والاديان
٣٩	الفصل الثامن الدولة الاموية
٤٩	الفصل التاسع الدول الكلبية
٥٧	الفصل العاشر الصليبيون
٦٣	الفصل الحادي عشر هول هول لا كو
٦٦	الفصل الثاني عشر دولة الماليك
٧١	الفصل الثالث عشر احوال تيمورلنك
٧٥	الفصل الرابع عشر الى المزيبة . . .
٧٧	الفصل الخامس عشر آل عثمان
٩٥	الفصل السادس عشر الترك الاقصي

النبات



الفصل الاول

سام وهام وبافت

انت سورية بلادي^(١) . وهذا تاريخك في ستة مجلدات
ضخمة^(٢) ألفه صديقي الاستاذ محمد كرد علي وسماه خِطَط الشام^(٣)
والخطط جمع خط وخطة ، اي الارض التي انزلها ولا ينزلها
نازل قبلك ، فتمنيتها علامة تشير الى انك اخترتها للبناء وحظرتها

(١) من نشيد وطني نظمته نغري البارودي بطلعه :

انت سوريا بلادي انت عنوان الفخامة
كل من باتيك يوماً طامعاً يلقي حماته

(٢) اي ستة اجزاء . ولكنني اعتمدت في مبرد الجواذث وتمحيضها
على الاجزاء الثلاثة الاولى وعلى تواريخ اخرى ستذكر في مجلداتها .

(٣) اطلق العرب ، بعد الفتح الاسلامي ، اسم الشام على هذه
البلاد . وللمؤرخين آراء فية مختلفة ، منها انه من سام بن نوح - واسمه
بالعبرانية شام - ومنها انه أطلق على هذه البلاد لبقع فيها حمراء وبضياء
وسوداء تشبهاً لها بالشامات . وهذا التشبيه الشعري يذكرني بالتقسيم السياسي
الاخير ، ومناطق او بقع « سيكس - بيكو » الزرقاء والسمرات والحمراء
وبكرتني « الشامات » . لذلك افضل الاسم الاول الخفيف من آشورية ،
او المنسوب الى صور نغز سورية القديم .

على غير قومك من الناس . والخط الطريق الشارع ، وهذا
اقرب الى الحقيقة في تاريخ سورية .

الطريق الشارع ، طريق الفاتحين .

ولكننا خططناها مرة واحدة بعلامات احترامتها الامم ،
فكان ذلك الحُقب العربي المجيد ، وكانت تلك الدولة العربية ،
العزيزة الجانب ، التي استمرت نحو تسعين سنة ، وبالتدقيق
احدى وتسعين سنة وعشرة اشهر .

وما سوى ذلك ، فالخطط طرق شارعة تخضبت بدماء
الامم . والخطط علامات تجمدت دموعاً على وجه الزمان .
والشاهد على ذلك هذا التاريخ المنقطع النظير في تواريخ الامم .
اجل ، ان هذا التاريخ ، الذي هو تاريخ الامم ، ليشهد في كل
صفحة من صفحاته على ما اقول .

وهو تاريخ طويل ، ممل ، مفعج ، لا يقدم على مطالعته غير
القليل ممن يهمهم اخبار الاولين ، وفظائع الحكام الفارين .
اني اذن ملخصه لك في هذه النبذة الواحدة التي يمكنك
ان تقرأها في جلسة واحدة . ثم تنشد اذا شئت نشيد غربي
البارودي ، او غيره من الاناشيد الوطنية الحياية العديدة .

سابقاً بالعلامات الاولى ، علامات الحدود ، وقد اعانتنا في
خطها الطبيعة . اي بلادي ، ان الرمال والجبال والانهر والبحار
تخطط بك ، فتعاون في تعزيز حدودك . هوذا البحر المتوسط يمدّه
البحر الاحمر عند العقبة . وهي ذبى الجبال تقوم لحراستك في
الشمال . وهناك الفرات وقد استل سيفه في الشرق . ثم البادية ،
تلك الحليفة الصادقة المنيعه ، وقد شيدت في الجنوب حصونها .
على ان ذلك كله لم يغنك شيئاً . فقد كنت ، بلادي ، الطريق
الشارع ، طريق الفاتحين ، ومحجة الامم . جاءوك صائلين بحراً
وبراً ، ومن وراء الجبال ، ومن وراء الصحراء ، ومما دون الفرات
ودجلة وبحر الروم . جاءك الاشوريون ، والمصريون ، والفرس ،
واليونان ، والرومان ، والعرب ، والصليبيون .

وجاءك هؤلاء كعدو العمران ، وديمورلنك عدو الانسان ،
وابن عثمان كابوس الزمان .

ثم جاءك من الغرب فاتح كرسكي وهو ينشد ضالة
الاسكندر . وجاءك من مصر ابن الباني عظيم ينشد ضالة الكرسكي
الاعظم بونايرت .

وجاءك مع الفاتحين ، وقبلهم ، وبعدهم ، طائفة من الالهة

وربط من الرسل والانبياء لو وزع ثلثهم على العالم لبللوه ، وقد
بللوا نصفه ، والعياذ بالله .

لنعد الى تعريف الخطط . فالخط والخطة ارض تنزلها ولم
ينزلها نازل قبلك الخ .

لا يصح هذا التعريف اذن في غير الشعوب التي سكنت
هذه البلاد بعد الطوفان . ولكن المؤرخين مختلفون في ذلك .
والارجح ان اقدم الشعوب في هذه البلاد هم الحثيون والعبرانيون
والفينيقيون .

اما الحثيون فكانوا يسكنون في الشمال او بالحري في
الارض التي تمتد من جبال طوروس الى دمشق . وكان ملكهم
مقسماً الى خمس دويلات ، اهمها اثنتان ، تلك التي كانت قرقيش
(جرابلس) عاصمتها ، وتلك التي نشأت في دمشق وحولها .
وكان الفينيقيون يقطنون السواحل من طرطوس الى صور ،
والعبرانيون يسرحون ويمرحون في المنطقة الجنوبية التي تدعى
فلسطين .

وهناك من يقول ، والقول مثبت في التوراة ، ان الهجرة
الكنعانية هي الهجرة الاولى الى هذه البلاد ، التي كانت تدعى

بأرض كنعان احد ابناء حام . فالحاميون اذن هم اول من توطنوا
هذه البلاد ، بلاد كنعان ، التي كانت تشمل لبنان وسورية
وجميع ارض الحبشيين حتى النهر الكبير ، نهر الفرات .

وقد كان فيها عندما دخلها بنو اسرائيل ، بعد خروجهم
من مصر ، واحد وثلاثون ملكاً (في التوراة - يشوع ١٢ : ٧٠
- ٢٤ - اسماؤهم واسماء ممالكهم كلها)

وجاء موسى الى ارض كنعان بآله اسمه يهوه ، وكان
الكنعانيون يعبدون إلهاً اسمه بعليم ، فاحترب الآلهان وغلب
اليهوه البعليم .

ثم أسس لب الاسباط مملكة كبيرة في الجنوب ، هي مملكة
يهوذا التي شيدها شاوول (١٠٣٠ قبل المسيح) ووسع نطاقها
داوود ، وضفر لها سليمان اكاليل المجد .
وكانت مملكة بني حداد^(١) قائمة في دمشق ، وقد دفعت

(١) ذكروا في التوراة باسم بنو حداد . ويقول الاستاذ موزيل في
كتابه « البادية العربية » صفحة ٤٨٨ ان اسمهم حراد ، وقد تكونت
الراء العبرانية قلبت دالاً ، وانهم قبيلة من العرب الذين كانوا مواليين
للعرب القديدار .

الجزية ، بالرغم عن استقلالها ، للملك سليمان .
وبعد موت سليمان (٩٣٣ ق م) انقسمت مملكة الجنوب
الى مملكتين : يهوذا وامرائيل .

وكانت عاصمة اسرائيل شكيم (نابلس) وكان بين اسرائيل
ويهوذا من الحروب ما هو مدون في التوراة . اما ملوك دمشق
فكانوا يشنون الغارات على اسرائيل في اثناء تلك الحروب ، وأبوا
بعد موت سليمان ان يدفعوا الجزية الى اورشليم . بيد انهم على ما
يظهر كانوا مواليين للفينيقيين ، وقد اشر كوا مع ربهم « رمثان »
في العبادة ، ربة فينيقية عشروت .

اما الفينيقيون فقد كانوا يعبدن اكثر من سواهم عن
الحروب ومنصرفين كل الانصراف الى التجارة .

هذي هي الدويلات التي كانت مؤسدة قبل الاستيلاء
المصري واثناءه في سورية . وبعد انقراضها ، كما سيحي في الفصل
الثاني ، عم اسم آرام هذه الديار فاصبحت تسمى آراماً وسكانها
آراميين .

وآرام هو الابن الخامس لسام بن نوح . كان يسكن وبنيه
بعد الحطوفان في الجزيرة ما بين النهرين ، قبل ان نرح الى هذه البلاد .

هو اذن جد العرب ، كما ان العرب اجداد الفينيقيين ، وقد جاءوا من البحرين ، على الخليج العجمي ، براً وبحراً الى شواطئ البحر المتوسط ^(١) .

كلهم اذن — الاراميون والعرب والفينيقيون والعبرانيون — ساميون ، الا الحثيين والكنعانيين ، فهم من نسل حام .
فهل انت وانا واخواننا القاطنون اليوم هذه الديار من سلالة الاراميين التي امتزجت فيها سلالات الحثي والكنعاني والفينيقي والعبراني ، اي الحامي والسامي ^(٢) ؟

ولكن المؤرخين يقولون ان في هذه البلاد شعوباً من سلالات ابناء نوح الثلاثة ، اية حام وسام ويافث ^(٣) . وقد

(١) راجع كتابي « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحات ١٨٩ —

(٢) أخذ عيسو (السامي) نساءه من بنات كنعان (الحامي) عدا بنت ايلون الحثي وأهوليامة بنت عني الخ (تكوين ٣٦ : ٢) ولكن اسحق اوصى ابنه الاخر يعقوب بالآل يأخذ زوجة من « بنات كنعان الشريرات » .
(٣) قيل ان الفلسطينيين من نسل يافث بن نوح جاءوا سورية من جزيرة كريت في عهد الفرعون رعمسيس الثالث ، فانزلهم في غزة وعسقلان وسجوارهما ، فسميت تلك البلاد فلسطين .

يختلط في بعضهم الدم القفقاسي بالدم الافريقي والتركي والعربي .
سام وحام ويافث ، رضي الله عن الثلاثة الاجداد .

ومما لا ريب فيه ان في بلادنا ، او بالحري في شخصية اهل
البلاد ودمهم ، ما لا يزال متوارثا من آبار الشعوب الغابرة كلها -
الكنعانية والاسرائيلية والمصرية والاشورية والحثية والفينيقية
والآرامية والكلدانية والفارسية واليونانية والرومانية والثرية
والعربية !

فهل يا ترى في العالم اجمع بلاد اخرى مثل هذه البلاد
السورية ؟

بلاد موطن العصبية انت ومدفن الوطنية :

الفصل الثاني

الاستيلاء المصري والاستوري

قبل ان تأسست مملكة يهوذا بنحو ستمئة سنة ، اي في القرن السابع عشر قبل المسيح ، كانت البلاد السورية كلها تابعة لمصر^(١) او بالحري كانت الدويلات الحثية والفينيقية والكنعانية ، حفظاً لاستقلالها النوعي ، تدفع الجزية وتقدم الجنود لحكومة فرعون .

(١) اول من غزا سورية في النصف الاول من القرن السابع عشر هو الفرعون طوطمس الاول الذي استولى على قسم من البلاد . ثم هاجمها المصريون بقيادة رعمسيس الاول فوسعوا سيطرتهم عليها . وبعد ذلك ، اي في عهد رعمسيس الثاني المزبور اسمه على صخرة عند مصب نهر النيل ، شمل الاستيلاء المصري البلاد كلها (ان الاثار المصرية التي اكتشفت حديثاً في تل بيسان هي من هذا العهد) ثم اخذت تضعف سلطة الفراعنة لما اعترى منكمهم من الفساد ولما حل به من دولة الرعاة وغيرها من شروخ التقسام ، فقام عليهم الحثيون واخرجوهم من فينيقية وفلسطين . الا انهم عاذوا فاستولوا على القسم الاكبر من البلاد في عهد آموسيس مجدد النهضة لمية .

ثبت ذلك ما اكتشف في تل العمارنة على شاطئ النيل
سنة ١٨٨٧ للمسيح من الرسائل المكتوبة على قطع من الأجر ،
المرسلة من ملوك سورية وفلسطين الى ملوك مصر . — اننا نقدم
الخارج ظائعين ، وندعو لفرعون بالنصر المبين .

وقد طالما تطورت السيادة المصرية في هذه البلاد ، فكانت
تضعف وتقوى ، وتضائل وتتجسم ، تبعاً لما يكون من حال
الدولة السائدة ، او من احوال الدول المسودة . ففي عهد رمسيس
الثاني مثلاً كان الملوك الحثيون والفينيقيون والكنعانيون
والعبرانيون يدفعون الجزية ويقدمون الجنود صاغرين . وفي عهد
سليمان الحكيم اضطر فرعون ابن يضاھر سيد اورشليم وملك
يهوذا ، ليظل هذا موالياً له .

بعد ذلك تضائلت السيادة المصرية في هذه البلاد واستمرت
كذلك الى ان جاء من وراء الفرات الفاتحون الآشوريون في
القرن التاسع قبل المسيح ^(١) فتنازعوها والفرعنة ، وتطاعنوا في

(١) اول من غزا سورية من ملوك آشور هو شلمنصر الثاني ،
وذلك في بداية النصف الثاني من القرن التاسع . واول من بسط سيادة
آشور على قسم منها هو شلمنصر الثالث ، ثم ثلثات فلاذر الرابع الذي

سبيلها التي لم تكن لاهل البلاد غير سبيل العبودية .
 وكان الفينيقيون اول من سلموا للاشوريين . ثم استعان
 الاسرائيليون بالفاتحين على اهل دمشق الذين كانوا يشنون عليهم
 الغارات ، فصاروا لقاء تلك المساعدة يدفعون الجزية لملك آشور .
 ثم اتحد ملك اسرائيل وملك دمشق (٧٣٣ ق م . ٠) على
 آخر ملوك يهوذا ، فاستعان هذا بالاشوريين عليهما فءانوه ،
 ووضعوا بعد ذلك على رقبته النير ، فامسى الملك اميراً يدفع
 الجزية الى سيد البلاد الاكبر ثغلات فلازر .

كذلك كان الفاتحون في ذلك الزمان ينصرون ملكاً على
 ملك واميراً على امير ، ليم لهم النصر على الجميع . ليس في سياسة

استولى على البلاد كلها (٧٣٣ ق م . ٠) ثم مرجون الذي تغلغل في
 البلاد العربية ، فوصل الى الجوف ، وأدب قبائل العرب التي كانت تقطع
 الطرق على القوافل . ثم سنجاريب المزابور اسمه وزسمه على صخرة عند مصب
 نهر النكلب . وظل ملوك آشور وسيطرين على سورية جمعاء الى ان
 سقطت دولتهم يننوى بيد البابليين . فجاء اذ ذاك نبوخذ نصر ملك بابل
 يفتح البلاد ، ففضى على ما تبقى فيها من السيادة المصرية (٥٩٧) وحمل
 على مملكة يهوذا فخطمها ، كما هو مذكور في التوراة ، وجلا الى بابل عشرة
 الاف من اهل اورشليم .

الفاتحين والمستعمرين شيء جديد .

وفي العقد الأخير من القرن السابع (٦٠٧ ق م) زحف
الفرعون نخو غازياً سورية ليعيدها الى حوزة مصر فاستولى على
القسم الجنوبي منها . ولكن نبوخذ نصر ملك بابل جاء بعد عشر
سنوات يخرج المصريين من البلاد ، فالتقى عندما وصل الى
قرقيش ، عاصمة الحثيين الاولى ، بملك مصر ، فالتحم الحيشان
هناك (٥٩٧) وكانت الغلبة للبابليين .

استمر بعد ذلك نبوخذ نصر في حملاته ، فاستولى على سورية
وعلى مملكة يهوذا . وظلت السيادة البابلية عزيزة في البلاد ستين
سنة ، اي منذ وقعة قرقيش الى حين سقوط بابل (٥٣٨) بيد
الفرس . فيكون الاستيلاء الآشوري البابلي قد دام في سورية
نحواً من ثلاثئة سنة .

اما العرب فلا ذكر لهم في تاريخ سورية قبل عهد الآشوريين ^(١)

(١) جاء في كتاب « البادية العربية » للمسنشرق النمساوي
المصدق الاستاذ الويز موزيل (Arabia Deserta, by Aloes Musil)
المطبوع بنويويورك في سنة ١٩٣٧ على نفقة الجمعية الجغرافية الاميركية
ان اول مرة ذكر اسم العرب في تاريخ سورية هو في انباء شلمنصر

اقول هذا على احتراحي للاستاذ كرد علي الذي يريد ان يزلهم في بلاد الشام قبل كل نازل حتى قبل الكنعانيين . بيد ان المؤرخ رولنسون يقول انه كان للعرب في بلاد الكلدانيين ، ما بين النهرين ، الثالث الذي غزا سورية سنة ٨٥٤ قبل المسيح . وقد كان يومئذ للعرب مملكة تان او امارات على ما يظهر ، الواحدة لعرب القدار شرقي دمشق في نواحي تدمر (منازل عزي اليوم) والاخرى لعرب النبط في الجوف بوادي سرحان ، اي في دومة الجندل .

وقد حارب شلحناصر هندية ملكة الانباط عندما جاءت بالف هجان تتجدد ملك دمشق عليه (٧٣٨) وجاء في انباء ثغلات فلاذر ذكر زبينة ملكة العرب التي خلفت الملكة هندية والتي قدمت لثغلات بعدئذ الجزيرة . وفي انباء سرجون عن حملته سنة ٧١٥ ذكرت اسماء اربع قبائل عربية تغلب عليها ، وجاء بالاسرى فانزلهم في السامرة . ثم حمل سرجون (٦٨٨) على تلحونه ، الملكة العربية ، ملكة الانباط ، فلم تستطع محاربتها ، فترك خيامها ولاذت بقصر في دومة الجندل .

وكان القويطع ملك القدار قد عصى ملك آشور فحمل عليه اسرحدون فكسره وغنم امواله ، وسبي رب او صنم القبيلة المسوى «الطلسين» . فعادت قدار الى الطاعة تقدم الجزيرة من ذهب وفضة ولبان وحجارة كريمة ملوك آشور .

وجاء في انباء آشور بنوبال في حملته التاسعة على سورية ما يدل على ان القدار والانباط اتحدوا على الاشوريين ولم يقبوا عليهم . فقد شنت جيش آشور اولئك العرب ، وساق اموالهم اي اغنامهم وحملهم الى دمشق

مألك دام مئتين وخمسة وأربعين سنة (١٥٤٣-١٢٩٨ ق م) .
ولا يقول أكثر من ذلك .

وقيل ان دولة الرعاة في مصر (١٩٠٠-١٥٢٥ ق م) .
كانت دولة عربية . ولكنها لم تكن على شيء من الحضارة . وقد
كان عهدها الطويل فظيماً في شطره الاول وعقياً في اطواره
كلها . فلا عجب اذا كره المصريون الملوك الرعاة ، وقام عليهم
الفرعون آموسيس ، مجدد النهضة الوطنية ، فاخرجهم من البلاد
(١٥٢٥) وزحف بعد ذلك الى سورية يؤدب السوريين لظنه
ان الرعاة منهم ، فكان فاتحاً مظفراً .

ومن المؤرخين من يقول ان الملوك الرعاة سوريون . ولا
نفر . فقد اقاموا في مصر نحواً من اربعئة سنة وهم يأكلون من
طيباتها ، ويفسدون ، ويخربون ، وما اكلت سورية بسببهم غير
النبت وخبز العبودية .

وسبي أم القويطع واخوته وامراته ، وسبي كذلك اصنام القبيلتين فاذل
العرب ، فامسوا بلا معين .

كل هذه الاخبار منقولة عن الانصاب التي عثر الاثريون عليها في
بابل ، والتي قرأها وحل رموزها الاثريون رولنسون وونكلار ودلتش
وغيرهم (Rawlinson, Winckler, Delitzsch) من كتاب « البادية

العربية » صفحات ٤٧٧ - ٤٩٢

الفصل الثالث

الاستعمار الفارسي

كانت الدولة الحثية الشمالية أكبر الدويلات السورية اقتداراً، واشدها بطشاً، فغلبت حتى المصريين مرة وخرجتهم من فينيقية ومن أرض كنعان الجنوبية.

ثم تحطمت الدويلات الحثية كلها تحت سنانك خيل الفاتحين من الشرق ومن الغرب، إذ احترب المصريون والاشوريون في قلب البلاد - وعليها - كما اسلفت القول، وعمّ فيها الويل والهلاك.

وما خف الهلاك والويل في زوال الاستيلاء الاشوري البابلي. فعندما خلع قورش ملك الفرس نير البابليين، واسس الدولة الاشمنوية الفارسية الآرية، التي قامت على انقاض الدولة الاشورية، شرع يسطر سيادته على البلدان التي كانت في حوزة ملوك بابل ونيينوى، فتم في عهده وعهد ابنه قمبيسس الاستيلاء الفارسي الآري على البلاد السورية كلها، سهلها وجبالها وساحلها،

وتجاوزها الى الجزر كقبرص وغيرها ، بل الى بلاد الاغريق
ومصر وافريقية .

كان حكم الفرس في هذه البلاد ، بل في كل البلدان
التي فتحوها ، حكماً استعماريّاً عسكريّاً ، ولم يكن للوطنيين يد فيه
البتة . فكان الملك يعين حاكماً من رجاله او من آل بيته ، ويمده
بجيش من اهل مادي وفارس لحفظ النظام والامن والطاعة .

اما اهل سورية فلم يحنّد الفرس منهم الا للغزوات والفتوحات
في البلدان الاخرى ، كما كان الاتراك مثلاً يحنّدون السوريين
لمحاربة اهل اليمن وعسير .

وكان لدولة الفرس اسطول عظيم يربو عدد مراقبه على
الالف ، كلها من صنع اهل فينيقية وقبرص واليونان . اما رجال
الاسطول وجنوده فمن اهل مادي وفارس . ولا غرو . فكيف
تثق الدولة بالاهالي وحكمها فيهم حكم المستعمر المستأثر المستبد ؟
حكم طاغية يقول : اذفعوا الضرائب وقدموا الجنود طائعين
صاغرين ، والا فهذه كتابتي عنكم تعلمكم الطاعة او تبديكم .

استمر هذا الحكم الفارسي العسكري الاستعماري في البلاد
السورية مئتين ومائتي وعشرين سنة (٥٥٨ — ٣٣٠ ق م) .

وبينما كانت الثورات تضطرم في البلدان الأخرى لحلق نيران الأجنبي !
فتحررت اليونان سنة ٤٤٩ وتحررت مصر سنة ٤٠٥ لم يحدث
في سورية غير ثورة واحدة صغيرة غير ظافرة . وذلك في الجهة
الفيقية ، وفي شرقي الأردن الذي كان يقطنه الآدوميون .

لم تكن سورية للملوك الفرس سوى طريق إلى مصر وأفريقية
وبلاد الأغر يق . والطريق التي يسلكها الفاتحون يجب أن تكون
آمنة . ويجب أن يكون فيها ما يكفي لتموين الجيوش . أما الأمن
فقد أوجده ملوك الفرس كما قلت بما كان لهم من الحاميات الفارسية
في البلاد . وأما التموين فأمره موكل بالخراج ، والخراج يتموناً
عجيباً في ظل الرماح . — هاتوا الأموال ، وهاتوا الأرزاق ، وهاتوا
رجالكم للحروب !

ثمان وثمان وعشرون سنة من هذا الاستعمار الشرقي ! وبعد
ذلك ؟ ان مصرع الباغي وخيم وإن تأخر مئتي سنة . فقد أرسل
الله الإسكندر ، إسكندر بن فيليبوس المقدوني ، ليؤدب الدولة
الفارسية الأشمونية التي كان يسوسها في آخر عهدها النساء والعبيد
والخصيان .

وكان دارا الثالث آخر ملوك الأشمونيين قد هم باسترجاع

بعض البلدان التي خسرها اسلافه السفهاء ، فزحف بجيشه الى سورية وقد اعتزم ان يغزو بلاد الاغريق .

ولكن الاسكندر كان قد عبر البحر الى آسية (٣٣٤ ق م)
ومعه خمسة وثلاثون الف مقاتل ، فالتقى بقسم من الجيش الفارسي
في الاناضول وكانت هناك وقعة « الغرائق » التي كتب له فيها
النصر الاسيوي الاول .

واستمر الفاتح الشاب زاحفا على سورية ، فوصل الى خليج
الاسكندرونة ، حيث كان الملك دارا وهو متاهب للحرب ،
فالتحم الجيشان في وقعة ايسوس (٣٣٣) شمالي الخليج ، وكانت
الغلبة فيها للمقدونيين .

تقهقر الملك دارا بما تبقى من جنوده الى الشرق واستمر
الاسكندر زاحفا الى الجنوب ، فوقع الرعب ، بعد وقعة ايسوس ،
في قلوب الفينيقيين والسوريين ، فدان اكثرهم له طائعين . « ولما
وصل الى جبيل تلقاه اهلها بالبشر والحقاوة » .

اما صور فأبى التسليم ، ودافع اهلها دفاع المستبسلين في
حصار دام سبعة اشهر ثم سلموا . وكان قد ارسل الاسكندر
احد قواده الى دمشق فاحتلها بجنوده ، واستحوذ على خزائن دارا

وما كان في المدينة لآعيان الفرس من المتاع والاموال .
وفي مدة لا تتجاوز العشرين شهرا اخرج الفاتح المقدوني
الفرس من البلاد السورية كلها ، كما اخرج الاحلاف الترك في
هذا الزمان . . .

اجنبي ينقلنا من اجنبي على الدوام !

الفصل الرابع

الامتداد السوفى

بعد وفاة الاسكندر في بابل (٣٢٣ ق م) انقسم قواده
مملكته الشاسعة فكانت سورية الشمالية وما دونها شرقاً الى حدود
الهند حصّة سلوقس نيكاتور اى الفاتح ، واستولى بطليموس على
مصر وعلى فلسطين وما يليها شرقاً وشمالاً .

كانت بابل في البدء عاصمة الدولة السلوقية ، فتقلها سلوقس
بعد عشر سنوات الى انطاكية ليتمكن من محاربة أعداءه في
الغرب .

تأسست هذه الدولة سنة ٣١٢ قبل المسيح وبلغت ذروة
المجد في عهد انطيوخس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٣) الذي حكم
خمساً وثلاثين سنة ، وبسط سيادته على البلاد السورية كلها
ماعدا البتراء وما يجاورها التي كانت يومئذ في حوزة الانباط . وقد
اغضب انطيوخس الكبير الرومانيين بسياسته وحروبه فحملهم على
التدخل في امور الشرق ، فجزّ ذلك في ما بعد الى الفتوحات

الرومانية التي قضت على الدولة السلوقية.

يبد أن هذه الدولة ظلت قائمة على أركان متزعزعة أكثر من مئة سنة بعد انطيوخس الكبير. وقد كانت خصوصا في هذه الحال واجهالا في كل احوالها مثل الدول التي تقدمتها ظلما واستبدادا. الا انها لم تكن محض استعمارية او صرف يونانية. فقد قسم السلاقسه البلاد الى مقاطعات يحكمها حكام يعينهم الملك. وكانت الوظائف الصغيرة بيد اناس من الوطنيين، وكان الجيش المرابط من اهل البلاد الا ان ضباطه يونانيون.

قال المؤرخ: «كانت دولة السلاقسه دولة حرب ونزاع، فقدت الشام في حالة بؤس ونحس، رومة تطالبها بيسط سلطانها عليها، ومصر تحاربها لتضمها اليها، واهل فارس يجتاحونها، فنيت البلاد بضعف الحال، وقلة الرجال».

وقد تفككت تلك الدولة في آخر عهدها لما قام فيها من الحروب الاهلية بين الاخوان وابناء العم الطامعين كلهم بالملك. نخرجت صور وصيدا وغيرهما من مدن الساحل على انطاكية، واعلنت استقلالها.

ورفع اهل الشام اصواتهم شاكين محتجين. ثم استنجدوا،

وقد ضاق ذرعهم ، باجنبي على اجنبي . أجل ، قد استغاث
 الدمشقيون بتغران ملك ارمينية ، فأغاثهم وانقذهم من السلاقسنة
 (٨٣ ق م .) وحكم الشام بعد ذلك ثمانى عشرة سنة كانت اللاحقة
 للسابقة عيناً — سبحان الله ! لقد انسانا الارمني ظلم السلوقي !
 ثم جاء الرومان سنة ٦٩ يوذبون الارمني تغران لتدخله في
 حرب من خروبيهم في الشرق ، فأخرجوه من دمشق كما اخرج
 الفرنسيين فيضلاً في هذا الزمان .
 وبعد اربع سنوات من خروج تغران جاء القائد الروماني
 بومبيوس (٦٥ ق م .) فأزال ما تبقى من سيادة السلاقسنة ، وحول
 ملكهم السوري الى ولاية رومانية . . .
 من اجنبي الى اجنبي على الدوام .

الفصل الخامس

الاستقلال النبطي

واين كان العرب في كل هذه الازمنة، ازمئة الاستعمار
الفارسي واليوناني؟

يقول المؤرخون ان الادوميين من العرب، وانهم كانوا
يقطنون البلاد التي تسمى اليوم بالشرق العربي. اما الانباط
فقد جاؤوا من دومة الجندل^(١) في القرن الرابع قبل المسيح (٣١٢)
فغزوا ارض الادوميين واخرجوهم منها. ثم اسسوا هناك ملكا
جديدا دام نحواً من ثلاثمئة سنة. فكانوا اذن معاصرين للسلافة
وللرومان في اول عهدهم في بلاد الشام.

ومن هم الانباط؟ يقول العرب انهم سوريون، وكان الرومان
واليونان يقولون انهم عرب. اما انهم ساميون. ومن نسل اسماعيل
فما تشهد عليه التوراة (تكوين ٢٨ : ٩) - « فذهب عيسو الى
اسماعيل واخذ محبة بنت اسماعيل بن ابراهيم اخت نايوت (جد

(١) راجع الشرح في صفحة ١٧

الانباط () .

ولكننا لا نعود بالقاري الى ذلك الزمن الاقدم وعندنا ما هو واضح ومؤكد في الزمن القريب من العهد المسيحي ، اي في عهد المكابيين والسلاقسة اليونان .

جاء ذكر الانباط لأول مرة في سفر المكابيين ، وقد غزا احد الملوك السلاقسة سنة ١٧٢ ق . م . المملكة الببطية وعاد خاسراً . ففي هذين التاريخين ما يدل على ان الانباط احتلوا البلاد التي هي عبر الاردن في بداية القرن الرابع قبل المسيح ، وان مملكتهم ، بعد مئة وسبعين سنة ، كانت عزيزة الجانب فلم يتمكن السلاقسة من الاستيلاء عليها .

وكانت تمتد هذه المملكة بين فلسطين وخليج العقبة ووادي الحجر وبحر الروم . اما عاصمتها فالبتراء ، وتدعى ايضا سلع ، بوادي موسى .

قال موسون : ان البدو واليهود والنبطيين كانوا على عهد مبيوس الروماني اصحاب السلطان في الشام .

والظاهر ان ملك البتراء الحارث الثالث دخل دمشق سنة ٨٥ قبل المسيح قبل ان يستنجد اهلها بالملك الارمني تفران

يستين . قد يكون جاءهم الحارث فزعاً ، او ليصلح بينهم وبين
السلاسة ، لانه كان مشهوراً بحبه لليونان ، فلم يفلح على ما يظهر
في معاه السلمي او الحربي ، فاستجد الدمشقيون بعدئذ
بتغران .

ولكن الانباط عادوا الى دمشق في عهد الحارث الرابع ، اي
بعد استيلاء الرومانيين عليها ، وظلوا اصحاب السيادة الوطنية فيها
اكثر من مئة سنة . هي سيادة وطنية مقيدة بسياسة رومة
الخارجية .

جاء في الانجيل (رسالة بولس الثانية الى اهل كورنتيوس
١١ : ٣٢) : « في دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة
الدمشقيين يريد ان يسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من
السور ونجوت من يديه » .

مما يدل على ان ملوك الانباط لم يسرعوا الى التنصر ، ولا
غيروا عاصمتهم البقراء . فعندما استولوا على دمشق عملوا عليها
احد رجالهم .

ومما اجمع عليه المؤرخون انهم كانوا يدارون الرومان
ويماثلونهم ، فيقدمون لرومة الجنود ، لقاء تلك السيادة ، ويدفعون

شيئاً من الخراج .

قال المؤرخ : « ان بيموس لما فتح الشام واستولى على دمشق وما جاورها ابقى لدمشق استقلالها ، وكذلك لبصري وجرش وعمات » .

— نولي عليكم واحداً منكم على شريطة ان تعترفوا بسيادتنا
فتدفعوا الخراج وتقدموا عند اللزوم الجنود .

هو الحكم اللامركزي — الحكم الروماني العربي او بالحري
النبطي — الذي دام اكثر من مئة سنة في حال من الخلل والفساد
تعاظت عنه رومة لانها كانت في مثاها ، بل في حال اشد منها .

لكن الامبراطور ثراجان (٩٨ — ١١٧ م) لم يرض بتلك
الاحوال المخجلة . فنهض لاصلاحها ولسان حاله يقول : لنسحب
من البلاد السورية او لنحكمها حكماً رومانياً . ومن هم الانباط
لنقيم منهم ملوكاً ؟ ومن هم السوريون ليكون لهم من الامتيازات
اكثر مما لسواهم من الشعوب والامم الخاضعة لسلطان رومة ؟

ضرب ثراجان على ايدي المفسدين في العاصمة ، وجدد في
الامة روح الاستعمار ، فاعاد الى الدولة الرومانية شيئاً من العز
والقوة . وقد جرد على سورية جيشاً كان مظفراً ، فأبطل

امتيازاتها ، وادخلها في صف المستعمرات . ثم حمل على الانباط فبدد شملهم وقضى على دولتهم (١٠٦ م) فصارت البتراء وما يليها مستعمرة رومانية .

وكانت دولة تدمر - النبطية ايضاً - قد دخلت في خوزة الرومانيين سنة ٣٦ قبل المسيح ، واستمرت طائفة تؤدى الخراج وتقدم الجنود لرومة نحواً من مئتي سنة .

وكان قد نزع من شرقي الاردن وبلاذ الشام الانباط النافرون من الرومان ، الناقون عليهم بعد استيلائهم الاستيلاء التام على بلادهم ، فشرعوا يدسون الدسائس في تدمر ليخرجوا اخوانهم هناك من ربة الاجانب .

فقام أذينة السمة يدعي يدعي الملك (٢٥٠ م) فحارب الرومان وحاصروهم في مدينة حمص ، فسلموا له . ولكنه توفي بعيد ذلك . ثم قامت زينب - الزباء - ارملة تعلن استقلال بلادها ، وتخرج الرومان منها . فجرد الامبراطور ديمتيوس اوريليوس حملة عليها ، وتولى قيادتها بنفسه . وكانت زينب تقود جيشها ، فتلاحم الجيشان في جوار حمص ، فانكسر جيش الانباط وتقهقر الى تدمر ، فحاصر اوريليوس المدينة (٢٧٣ م) فسلمت ، ووقعت الملكة العربية

اسيرة بيد الامبراطور الروماني . ثم حل بتدمر ما حل بالبثراء
قبلها .

وكان بنو السبيذع القاطنون بادية الشام في اوائل النصرانية ،
الاقليلا منهم ، انصار اذينة وزوجه الزباء ، يالثون الرومان ،
ويساعدون في تحقيق مقاصدهم الاستعمارية . بل كان الكثيرون
من العرب يحاربون في صفوف الاجانب لمال او لوظيفة
اولحزازات في الصدور . . .

سأخنتك لا بيدي بل بيد ابنائك .

انت سورية بلادي . واليد التي على عنقك اليوم هي يد

ابنائك — «الابرار» — لا يد الاجانب .

الفصل السادس

بنو نوحاه والرومان

كانت العصبية متأصلة في هذه البلاد السورية عندما استولى عليها ملوك اشور . وقد استخدموها غير مرة لاغراضهم كما فعلوا عندما استنجدهم الاسرائيلون على ملوك دمشق ، وعندما استعان بهم ملك يهوذا على خصمه ملكي دمشق واسرائيل .

وكانت تلك العصبية جنسية ودينية معاً ، فتعصب الفينيقي لآدونيس ، والاسرائيلي ليهوه ، والدمشقي لرمات ، والكنعاني للبعليم . ثم جاءهم الفرس باهورا وازدرشت ، والسلوقيون اليونان يرملان من الاصنام ، والانباط بارباب من الحشب والصوان ، ولسان حال الحكميم في ذلك الزمان يقول :

كل يعظم دينه - ياليت شعري ما الصحيح ؟

ثم جاء من يجاوب ذاك الحكميم جواباً فلسفياً لاهوتياً . جاء بولس العبراني ، احد تلاميذ يسوع الناصري ، الذي ظهر في الجليل ، يقول : انما الدين الصحيح هو هذا الذي على لساني وفي

قلبي، ولا دين صحيح سواه ٠٠٠ كان في البدء الكلمة، وكانت الكلمة ٠٠٠ انج

انما الرسول بولس الانباط والاراميين بدمشق، فحاول عامل الحارث ملك البتراء ان يقبض عليه (كورنثيوس ١١: ٣٢) فتدلى من الشباك وفر هارباً ٠ لم يتنصر الانباط في بادئ الامر لانهم كما ظهر كانوا مواليين يومئذ للرومانيين ٠

ثم جاء من البلاد العربية، من اقاصي الجنوب في شبه الجزيرة، قوم من عرب الازد، حكم عليهم بالهجرة سبل العرم، فتركوا في بلاد الشام ٠ وانضافوا الى ملوك الروم^(١) كما يقول المسعودي «فلكروهم، بعد ان دخلوا في دين النصرانية، على من حوى الشام من العرب» ٠ واول هؤلاء المملكين عرب تنوخ، واول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك ٠

«ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فلكنها الروم على العرب الذين بالشام» ٠ وبعد ذلك جاءت غسان^(٢)

(١) قد اطلق العرب اسم الروم على الرومان وعلى من حكموا في القسطنطينية ٠

(٢) قال ابو الفداء ان قوماً من اليمن من بني ازد (الذين يمشون

فكانت المتفوقة المتغلبة على سليح وتوخ . والغساسنة موصوفون
 بالبرورة والذكاء ، والدهاء والاقدام . ولا غرو ، فالتكبات نقل من
 الشكائم ، وتعلم الموادة في سبيل السيادة ، والتساهل في سبيل
 العيش .

تنصر بنو غسان فملكهم الروم على العرب ، وكان اول
 ملوكهم جفنة بن عمرو ، واشهرهم الحارث ، وكانت منازلهم بالشام .
 اما جميع ملوك جفنة من آل غسان فاثنا وثلاثون ملكا لبثوا في
 ملكهم نحو ثلاثئة وخمسين سنة .

بعد ان اباد الرومانيون دولة الانباط شدوا النير على اهالي
 هذه البلاد ، فاضطروا ان يقيموا الحاميات الكبيرة في المدن
 ليعززوا سيادتهم فيظل الاستعمار وظيفد الاركان . ولكنهم كانوا
 يحتاجون الى الجنود للحروب والفتوحات في اوروبة وافريقية ،
 وقد رأوا ما يراه ساسة اليوم الاستعماريون ، وهو ان شراء السيادة
 بالمال او بالانقلاب انجس جداً من نيلها وتعزيزها بالسلاح . لذلك

الى كهلان بن سبا) نفروا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء سيف
 الشام يقال له غسان فتنسبوا اليه . وغسان هذه قرية من قرى حوران
 الى الجنوب الشرقي من دمشق .

بدلوا الاستعمار بنوع من الانتداب، أو انهم عادوا الى خطتهم السابقة لعهد الامبراطور تراجان.

وكان امراء العرب من لنوخ وسليح وغسان - خصوصاً غسان - قد تنصروا، ولنا ان نقول « كرومونا » اي اقبسوا بعض عادات الرومان، وتخلقوا ببعض اخلاقهم، كما يتفرنج بعض الناس في هذا الزمان. وقد سر ذلك الرومانيين، فقرّبوا منهم كبار الغساسنة وأمروهم على بلاد الشام.

وكذلك فعل ملوك فارس بالعرب الذين نزحوا من اليمن الى العراق فنزلوا مكاناً هناك سموه الحيرة، التي صارت بعدئذ مقام الملوك اللخمين اي المناذرة من آل النعمان بن المنذر. وكان المناذرة العرب بيد الاعاجم الفرس مثل الغساسنة العرب بيد الاعاجم الرومان. وكان الفرس اعداء الرومان فصار اللخميون اعداء الغساسنة؟

اجل، قد اقام الرومان ملوكاً من غسان ليتمكنوا السيادة الرومانية في البلاد، وليقاوموا بهم اعداء رومة وبيزنطية. بل اقاموهم ملوكاً ليردوا عن سورية اغارات اللخمين، وغزوات الفرس فاحترّب الاخوان الغساني واللخمي من اجل الاجنبي ابن رومة.

وكان الواحد تحت الانتداب القارسي، والاخر تحت الانتداب
الروماني.

اجل، قد كان الرومان والفرس يصطنعون ملوكاً من اولئك
العرب اجدادنا كما تصطنع دول الفرنج ملوك هذا الزمان.
انت سوريه بلادي،
انت عنوان الفخامة!

الفصل السابع

باب المعيمات والادبانه

حكم اليونان في هذه البلاد مئتين وتسعة وستين سنة ،
فانتشرت الثقافة اليونانية في الطبقات الراقية من الامة ، وحلت
الاساطير اليونانية محل الاساطير الآشورية والفينيقية . وانها
اقتبست بعضها ، فصارت عشروت مثلا أفروديت ودخل البعل
في برمان الاصنام .

اما لغة الاهالي فظلت كما كانت آرامية منذ بداية الدولة
السلوقية وقبلها . الا ان الطبقات العالية واولياء الامر والطامعين
بالوظائف كانوا يحسنون ايضا لغة الفاتحين .

وجاء بعد اليونان الرومان ، فحكموا في سورية سبعة قرون
كاملة . وقد كان العهد الاول ، اي منذ فتح الشام (٦٥ ق م .)
الى حين سقوط الدولة النبطية (١٠٦ م) عهدا شبيها بالانتداب
او بالحكم اللامر كزي . وكان العهد الثاني ، اي من ايام تراجان
الى ايام قسطنطين ، عهدا استعماريّا استبداديا . فاشتد النير الروماني

على البلاد، وكان الناس فوق ذلك يعيشون في خوف دائم من الاضطهادات الدينية التي كانت تبدأ في رومة او في القسطنطينية وتمتد بولاياتها الى الولايات والمستعمرات الرومانية كلها.

اما العهد الثالث، اي من ولاية قسطنطين الى ولاية هرقل، فقد عم فيه الفساد الديني والمدني، وصارت القسطنطينية قطب المناقشات اللاهوتية التي افسدت على الناس عيشتهم، وبلبلت عقائدهم، وبدلت حرية الضمير بالطاعة العمياء للبطاركة والاساقفة الذين اصبحوا في نعيم من الدنيا يرفلون بالارجوان، وبارون بالترف والابهة اصحاب الصولجان.

وكان ملوك الفرس الساسانيون لا يزالون يتطلعون الى هذه البلاد، بل الى ملكهم القديم، ويطمعون باسترجاعه، فاغتنم كسرى انوشروان فرصة سنحت من جراء الفساد الذي عرا الدولة البيزنطية المسيحية، وزحف الى سورية في طليعة القرن السابع (٦١١ م) فاحتل قسماً منها. ثم استعادها الامبراطور هرقل، ولكنها لم تدم منذ ذلك الحين غير بضع سنين في حوزة الرومان، اذ كان قد ظهر في الحجاز نبي عربي يحمل كلمة في التوحيد الالهي آمن بها الناس وحملوا السيف في سبيلها.

وراح أولئك العرب بكتابهم الشريف، وبسيفهم البتار،
يدتوخون الممالك، ويهدون الملوك ويهدون عروشهم.

جاء عرب التوحيد من الحجاز يوم كانت الدولة الرومانية
لا تزال مشغولة بالمناقشات اللاهوتية، بالثالوث وبالشيئة الواحدة
والمشيئين، وهم يكبرون ويهللون - الله اكبر! لا اله الا الله!
جاءوا باسم الله الواحد فاتحين، وهم يحملون الكتاب والرمح،
ووصايا ابي بكر العشر في القتال.

— لا تقدر. لا تمزلي. لا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً.
لا تعقرن شاة ولا بعيداً الا ما اكلتم. لا تحرقن نخلاً. لا تخربين
عامراً. لا تقتل الغلول الخيانة في المغنم. لا تجبن.

ان مثل هذه الوصايا الجميل في كل زمان ومكان اذا عمل به.
ولا شك ان العرب كانوا ارحم من سبقهم من الفاتحين واعدل
بالناس. ولا شك ان العصبيات، التي تحول دائماً دون العدل
والرحمة، كانت في تلك الايام اشد مما هي اليوم، فلم يتقلب
الاسلام عليها كلها.

مما هو جدير بالذكر ان عسكر هرقل الذي حارب وانكسر
في وقعة اليرموك في السنة الثانية عشرة للهجرة (٦٣٤ م) كان

فيه الوف من العرب — من لحم وجذام وقضاعة وغسان وبرة
وتنوخ — ومن الارمن ابضا !

سبحان المغير ولا يتغير . فيها نحن في القرن العشرين وقد
حارب الفرنج العرب ببعض العرب وبالأجانب من غير اوروبية —
بالارمن والشر كس وعبيد السنغال في سوزية ، وبالهنود في
العراق — حاربوا العرب المسلمين بجنود مسلمين من امم اسلامية
تحمل باطلاً اسم الاسلام .

وكان الفضل الاكبر في ذلك الفتح العربي الاسلامي ان
استعربت الشعوب السورية وصارت العربية لسان اهل البلاد .
انه لا سهل على الشعوب ان يغيروا لسانهم من ان يغيروا
تقاليدهم واخلاقهم . فقد تعاقبت على هذه البلاد اللغات الفينيقية
والحثية والعبرانية والسريانية والارامية واليونانية واللاتينية . ثم
جاءت العربية تحل محلها كلها .

وكان الفضل في نشر العربية في البلاد السورية راجعاً أولاً
للوثنين من العرب ثم للمسيحيين قبل الفتح الاسلامي . ولا يزال
المسيحي عاملاً في سبيل هذه اللغة في سورية ومصر والعراق ،
حتى وفي ما وراء البحار — في العالم الجديد .

ولكن اللغة وحدها لا توحد العناصر، ولا تغلب على
العصبيات. كان اللخمي والازدي واحداً في العربية، ولكن
العصبة ظلت مستحوذة على الاثنين، وصار فوق ذلك يتعصبان
لاسيادهما الاجانب، الواحد للفرس والثاني للرومان.

ولا الدين، وان كان دين التوحيد، يساعد في تحقيق
الوحدة العنصرية والقومية. كان القيسي واليماني واحداً في
الاسلام، وظلا في العصبة المفككة لا وصال الوطن قيسياً ويمانياً،
ناهيك بالدول الاسلامية المتعددة التي قامت بعضها على بعض،
وشيدت بعضها على انقاض بعض، باسم العصبة، تلك العصبة
التي كانت السبب الاول والاكبر في سقوطها كلها.

ولا تزال العصبات الدينية والجنسية، او الاقليمية، متغلبة
على عوامل اللغة والدين. لا يزال للفينيقي والاشوري والحثي
والكنعاني والنبطي واليوناني والرومي والآرامي أثر حتى مفسد
في حياة السوريين الاجتماعية والوطنية. ولا يزال للاوثان
العربية والشرقية — للبعل والزهرة واللات وعشتروت — اثر
ظاهر في اديانهم.

انت سورية بلادي. انت بابل العصبات. وانت بابل الاديان.

الفصل الثامن

الدولة الاموية

تعود الناس ان يقبلوا احكام التاريخ دون ان يعيدوا النظر فيها . وتعود الكتاب والمؤرخون ان ينقلوا ويقتبسوا بعضهم عن بعض دون ان يحكموا العقل في ما ينقلون ويقتبسون . اما هذه النبذة التاريخية فلا حكم فيها لعير العقل والحقيقة .

قامت في الشام على اثر الفتح العربي دولة عربية مجيدة ، مجيدة في ثلاثة امور لا غير ، اي في فتوحاتها ، وفي ترفها ، وفي تعزيزها اللغة العربية . وما سوى ذلك فالمؤرخون في الكلام عليها اثنان : متحيز ومتحامل . اما كاتب هذه النبذة فلا ناقة له في الفيحاء ولا جمل في النجف .

اذن ، بعد التوكل على الله والحقيقة ، اقول : كانت الدولة الاموية بعيدة عن العدل — عن عدل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم اجمعين — بعد الشام عن الكوفة . وكانت الدولة الاموية بعيدة عن الحكمة في اكثر اعمالها ، وعن النظام والادارة في اكثر

احوالها ، بعد عاصمتها عن السند والاندلس .
 لا يسمح نطاق هذه النبذة بالتوسع في البحث . ولكني ،
 اذا ما عرفت القاريء الى الخلفاء الامويين واحداً واحداً بكلمة
 او كلمتين ، اكون قد أدت البرهان على ما قلت في الفقرة السابقة .
 اول الخلفاء الامويين معاوية ، وهو ولا ريب من كبار من
 اسسوا ملكاً في العالم . وهو الاموي الوحيد الذي استطاع ان
 يعدل في المصبيات فلم يؤزر واحدة على اخرى . الا ان له
 زلات ، والكبرى فيها هي انه سمح بدم علي ابن ابي طالب على
 منابر الامصار ، فتأججت النيران في صدور شيعته وظلت تستعر
 حتى بلغت الشام فالتهمت العرش الاموي . فابن الحلم الذي
 يصفه به المؤرخون ؟ ومن زلاته انه كان يشتري الانصار
 فينصرونه بالسنتهم وبايديهم لا بقلوبهم . وقد طالما تساهل في
 امور ادارية نعتها اليوم خيانة وطنية ^(١) . ومن زلاته انه عين

(١) مثال ذلك تنازله عن مصر لعمر بن العاص لقاء الولاء
 والاعتراف بالسيادة الاموية الاسمية . فقد جاء في صك التعيين انه اي
 معاوية اعطى عمرو بن العاص مصر واعلمها ! هبة يتصرف بها كيف شاء .
 وقد تصرف ابن العاص بخراج مصر في الاقل كما شاء .

ابنه يزيداً خلفاً له ، وهو عالم انه مكشال محب للهو والطرب .
 وكان يزيد مولعاً بتربية القروذ والكلاب اكثر من ولعه
 بتربية الملك وتوطيد اركانها ، بتربيته بالحكمة وتوطيد اركانه
 بالصالحات . لولا ذلك لما قُتل الحسين في كربلاء . فقد كان
 في طاقة الجيش الاموي الكبير ان يأسر الحسين وقافاتسه التي لم
 يتجاوز عددها الستين نفراً ويحبسهم كلهم اسرى الى دمشق .
 وقد كان في طاقة الخليفة يزيد ، لو كانت على شيء من فضائل
 ابيه ، ان يمنع جنوده عن نهب المدينة بعد فتحها ، او انه في الاقل
 لا يديحها لم ثلاثة ايام .

اما ثالث الخلفاء معاوية بن يزيد فكان خليفاً بان يكون من
 الزهاد لا من الملوك .

والرابع مروان بن الحكم اخذ الخلافة بالسيف وكان يحاول
 ان ينسج على منوال معاوية الكبير . ولكنه قُتل غدرًا في الشهر
 التاسع من ولايته .

والخامس عبد الملك بن مروان الذي يعده المؤرخون مع
 معاوية من الطراز الاول . فقد حكم نيفاً وعشرين سنة حكماً
 عسكرياً اوتوقراطياً ، فكثرت حروبه . ولولا المال الذي كان

بيذه لما كان فيها موقفاً . هو الذي صالح الروم على مال يؤديه الميم - الف دينار كل يوم ، وفرس و غلام ؟

وعبد الملك بن مروان هو اول من قيد حرية الكلام في حضرة الخلفاء ، فلم يعد العرب في عهده وبعده يراجعون الخليفة كما كانت عادتهم - وكما هي عادتهم اليوم في نجد وفي اليمن - ويعترضون عليه . لو كان في عهد عبد الملك صحافة لما تمتعت يوماً واحداً بالحرية التي هي كنزها وكنز الحقيقة الاكبر .

وعبد الملك بن مروان هو الذي امر بدم العيون والابرار في البحرين ليفقر اهلها فيلينوا للحكام .^(١)

وعبد الملك بن مروان هو الذي امر الحجاج على الحجاز ثم على العراق - الحجاج بن يوسف^(٢) جزأ ذلك الزمان .

اما الوليد بن عبد الملك الذي تولى بعد ابيه فقد حكم تسع سنوات حكماً حسناً . وكثرت لشغفه بالعمار الابنية الكبيرة

(١) راجع « ملوك العرب » الجزء الثاني ، صفحة ٢٠٦

(٢) يقال انه بلغ عدد من قتلهم عشرين ألفاً ، ومن سجنهم من رجال ونساء ثمانين ألفاً . ومما استغلنا من هذا العدد تجنباً للعبادة يظل الحجاج فريداً في شهرته الفظيعة .

خصوصاً المساجد بدمشق . ولكنه لكثرة ما كان يبذله من الخراج ، على ما يظهر ، في البناء قلت لديه الاموال ، ففعل ما فعله في هذا الزمان رئيس وزراء فرنسا . فقتل الوليد الدواوين وألقى الكثير من الوظائف غير اللازمة . « اضطر الى احضار اهل الديوان » - كلام المؤرخ - « وألقى منهم بشراً كثيراً بلغ عددهم عشرين الفا » ^(١) .

سابع الخلفاء سليمان بن عبد الملك رحمه الله لانه « اعتق سبعين الف مملوك ومملوكة » ^(٢) وكسأهم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في « بجن العراق » ومن حسنت سليمان انه اوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز .

وعمر بن عبد العزيز ثامن الخلفاء هو اعقل الامويين واعدلهم ^(٣) على انه لم يكن محبوباً من اهله . فبعد ان حكم سنتين

(١) سيدي كرد علي : كم كان في ديوان الوليد من الموظفين اذا كان الغنى منهم عشرين الف موظف ؟ !

(٢) وكم كان يا استاذي عدد الارقاء في البلاد ؟

(٣) من خطبته حين ولي الخلافة قوله : « من يصحبنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا . يرفع اليها حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا

ونصف سنة ، حكم الخلفاء الراشدين ، مات مسموماً . والذي
اصلحه عمر هذا افسده يزيد بعده .

يزيد بن عبد الملك تاسع الخلفاء ، ذاك العاشق الوهاني ،
مجنون حباية التي كانت حاكمة في عهده ^(١) جلس على فراش
الملك اربع سنوات وما كان حقه ان يجلس اربعة ايام .
العاشر هو هشام بن عبد الملك . وهشام هو آخر من ضفر
اكليلاً من المجد للدولة الاموية .

اما الحادي عشر فهو ابن يزيد العاشق الوهاني . هو الوليد
الخليع ، السكير ، المشهور بالاحقاد . قبل البيعة بالخلافة وهو
سكران . كان ينبغي ان يُقتل لا ان يُقتل ، لان في قتله
استيقظت الفتنة واضطرب بعد ذلك امر بني امية .

الخليفة الثاني عشر هو يزيد بن الوليد الذي حكم خمسة اشهر
لا غير — خمسة اشهر مشؤمة كانت القن اثناءها اشد من

على الخير يجيده ، وبدلنا من الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يفتان احداً ،
ولا يعترض في ما لا يعنيه » .

(١) قال المؤرخ : وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل
حباية .

الطاعون الذي انتشر في البلاد ، وذهب يزيد الثالث فريسة
الذئاب .

وكان اخوه ابراهيم الخليفة الثالث عشر ضعيفاً خواراً ،
فقد بايعه فريق من الناس ونازعه فريق آخر ، فخلع نفسه .
اما آخر الخلفاء مروان بن محمد بن مروان ، فقد كانت
الخطوب في عهده اكبر منه . واكبرها امر ابي مسلم الخراساني
الذي أظهر الدعوة عائلاً لبني هاشم ، وجرد في سبيلها جيشاً قاده
عمه عبد الله بن علي ، فزحف على مروان الذي كان قد جاء العراق
بجيش من اهل الشام ، فالتقي الجيشان في وقعة الزاب قرب
الموصل (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) وكانت الغلبة لعبد الله . انكسر
مروان لتخاذل اهل الشام . وما تخاذل اهل الشام الا لما نالهم من
ظلم الامويين .

فكم واحد من هؤلاء الخلفاء الاربعة عشرة احسن سياسة
الملك ؟ وكم واحد كان يستحق ان يحكم العباد ؟
معاوية في الدرجة الاولى ، ثم عمر بن عبد العزيز ، ثم الوليد
بن عبد الملك ، واخوه هشام . اربعة من اربعة عشر .
اما العشرة الباقون فقد كان العجز قيد الصالحين منهم .

وكان الشرقيد الآخرين . كبيرهم يعطي بغير حساب ، وصغيرهم
يظلم بغير حساب . وكلهم يصرفون اموال الامة في مجالس
الانس والطرب على القيان والراقصات والتدماء والشعراء .

والعجيب في امر اولئك الامويين ، الموصوفين بالنباهة
والدهاء ، والحكمة والذكاء ، ان الفتن كانت تستمر في حصص
ولبنان وفلسطين ، وفي الشام نفسها ، وهم غافلون او مشغولون
عنها في محاربة الروم وفي الفتوحات .

وما الفائدة من الفتوحات للدولة وليس بين العاصمة
والبلدان المحتلة صلة عمران او سيادة . ما الذي كان يربط
القيروان مثلاً بالشام ؟

من الهند الى الاندلس ! انه لملك عظيم بعيد الارجاء .
وكيف كان الامويون يحكمون تلك البلدان الشاسعة القصية
بانزى ؟ الجواب انهم لم يحكموها . فقد كان القائد العربي يفتح
البلاد ويتولاها باسم الخليفة دون ان يراجعه في اكثر الامور .
وكثيراً ما كان اولئك القواد يتصرفون بالاموال وبالرجال كيفما
شاءوا . مثال ذلك عمرو بن العاص في مصر والحجاج بن يوسف
في العراق .

وكان الخليفة بدمشق راضياً بان يذكر اسمه في الخطبة
 بالقاهرة او بالقيروان . واذا جاءه منها بعض الخراج فنعمة كريم .
 اجل ، قد كان الامويون يهتمون للبعيد غير المثمر الا
 مجداً ، ويهملون القريب وفيه الصالح الاكبر او الخطر الاشد .
 اما العدل في الرعية ، العدل الذي هو اساس الملك ، فهو
 ينعكس من الجالس على العرش . وقد عرفت ارباب العرش وفيهم
 العاجز والسفيه والخلع والسكير والظالم . وهالك شهادة اخرى
 من واحد من اهل هذا البيت :

« سئل احد شيوخ بني امية بعد زوال الملك عنهم : ما كان
 سبب زوال ملككم ؟ فقال : جار عملنا على رعيتنا ، فسمعوا الراحة
 منا . وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا . وخربت ضياعنا
 فخربت بيوت اموالنا . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا .
 وأمضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا . وتأخر عطاء جنودنا فزال
 طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا » .
 هذي هي الدولة التي تمدحون .

استولى الامويون على الملك بخدعتين ، في وقعة صفين
 وبعدها في التحكيم ، فملكوا تسعين سنة . واستولى عليه العباسيون

بمذبحة تلتها مذابح في سورية وفلسطين والعراق .
وعقبت المذابح القوضى وقد اقتدى اربابها بابي العباس
السفاح .

— هذا العُمَيطَار يدعو نفسه بالشام ، فباعتته اليمانية ،
وقاومته القيسية ، ففتك بهم ونهب دورهم وأحرقها .
— وهذا ابن بييس يحارب العُمَيطَار ثم يستولي على دمشق
وينكل باهلها .

— وهذا المَبَرِّق يدعي الخلافة ويخرج بخمسين الفا من
اهل اليمن على الخليفة العباسي فيحاربه ويقع بيده اسيراً .
— واستمرت الفتن تضطرم ونار العصبية تستعر في
بلاد الشام في عهد العباسيين ، من السفاح الى المأمون ، فلم
يستطيعوا اخادها .

وكانت الدوائر تدور كلها ، لا على الباغين — الظالمين
السفاحين — بل على الاهالي المساكين ، على اولئك الذين يدفعون
الضرائب ويلبون الدعوة للجهاد ؟

انت سورية بلادي ،

انت عنوان الفخامة ؟

الفصل التاسع

الدول العربية

حكم الرومان البلاد السورية بمساعدة العرب سبعئة سنة .
ولم تدم دولة من الدول العربية الاسلامية او الوثنية اكثر
من مئتي سنة . فما السبب في ثبات الاعاجم وفي نزوع السيادة
الوطنية وضمحلها ؟ اني ارى — والرأي يظهر غريباً — ان
السبب الاول والأهم في طول حكم الرومان وقصر مدات الاحكام
العربية هو واحد — هو الظلم .

فالظلم في العهد غير العربي ، الظلم المنظم ، تنفذ احكامه
القوة القاهرة ، وتساعد في التنفيذ ، المال او جاه او نكابة ، عرب
غسان وتوخذ ، هم السبب في دوام السيادة الاجنبية . اجل ،
قد استولى الرومان على البلاد بواسطة امرائها والمتنفذين من
ابنائها .

والظلم هو السبب الاول والأهم في زوال الدول العربية .
واليك البرهان . كان حكم الخلفاء حكماً فردياً او توتقراطياً يتركز
٤ (النكبات)

على عصبية من العصبيات المتعددة ، لا على الجنسية العربية الشاملة لكل العصبيات . لذلك لم يتمكن الخلفاء الامويون من اخماد الفتن الناشئة عن العصبيات المعادية لها في العراق . ولذلك لم يتمكن الخلفاء العباسيون من التغلب على العصبيات التي استعرت نيرانها بعد سقوط الامويين في بلاد الشام .

انه في الاجمال لحكم ظالم ، لا عدل فيه لغير العصبية المرتكز عليها . ومثل هذا العدل هو نوع آخر من الظلم . الا ان الحكومة الظالمة التي تفنقر الى قوة ادارية وجندية منظمة ، والتي ينخر في اصولها سوس العصبيات ، تظل متزعزعة ولا تلبث ان تسقط وتضمحل .

يقول المؤرخ ان ابن طولون (مثلاً) كان على جانب من العدل وحسن السيرة ، وانه فكر كثيراً في عمران مملكته « حتى زاد خراجها » .

زاد خراجها ؟ ! وهل في ذلك دليل على العمران ؟ اما نحن لنا ان ننظر الى حوادث التاريخ من وجهة حديثة عالية عامة ؟ اني اسألك : كيف كان 'يصرف الخراج ؟ واذا كنت في شغل يشغلك عن بحث مثل هذه المسائل فانا اجيب عنك . كان الخليفة

إذا كان من الصالحين، يصرف قسماً كبيراً من الخراج في بناء المساجد والمدارس المسجدية . وإذا كان كالوليد بن يزيد أو كهرون الرشيد فعظم الخراج إنما هو لنفسه ولأهله ولحظياته وعبيده والمقربين منه . وإذا كان كبيراً كعاوية أو ظالمًا كعبد الملك بن مروان فيبت المال في نظره إنما هو لشراء الانصار وتسكين الأعداء .

أما الناس — العدد الأكبر من الأمة — أولئك الذين يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج ، ثم يحملون السلاح للجهاد — فدعهم يعيشون في جهلهم وأوساخهم وأمراضهم وشقايتهم المستمرة .

— وأرسل الله القرامطة على هذه الممالك تأديباً وتطهيراً . ققام الحكام يسوقون إلى القتال أولئك الذين يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج . إلى الجهاد ؟ إلى الجحيم ! حملوا السلاح ليردوا القرامطة عن أمرائهم وحكامهم ، وما كان القرامطة بأشر من أولئك الظالمين .

أتعجب بعد ذلك إذا قيل في الأخشيذ الأول ان في زوال ملكه فرحاً للعالم ؟

وهذا سيف الدولة علي بن حمدان عدو الروم وخصم
الآخشيدي . سيف الدولة الذي حكم وحارب من سنة ٣٣٣ الى
سنة ٣٥٦ (٩٤٥ - ٩٦٧ م) فكان مظفراً سعيداً في حروبه
كلها ، وجائراً كل الجور على رعيته . سيف الدولة الذي « اشتد
بكاء الناس عليه ومنه » كما يقول الازدي . وقال صاحب
الخطوط ، الذي يعود الى الفزاهة التاريخية بعد ان يكون قد تعب
بها واركبها مطية الغرض ، ان سيف الدولة « كان يخرب قرية
ليجيز شاعراً مدحه بقصيدة » .

وكان قاضيه ابو الحصين يقول : « كل من هلك ، فلسيف
الدولة ما ترك » وادرك القدر القاضي ابا الحصين ، فقتل في
احدى المعارك ، فداسه سيف الدولة بحصانه قائلاً : « لا رضي
الله عنك . فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم » .
ولا رضي الله عمن ولج باباً من تلك الابواب .

كان بنو حمدان وبنو آخشيدي من عمال خلفاء بغداد — من
عمالهم العاملين في سبيل انفسهم وشهواتهم . ويا لها من مهزلة ،
مهزلة ذاك الملك . اسمع الآخشيديين والحمدانيين يخاطبون بني
العباس الخلفاء : — سنضرب السكة باسمك : على الرأس والعين .

وسندعو لكم في الخطبة : حباً وكرامة ، ولا نكلفكم بعد ذلك شيئاً .

يضربون الدينار باسم خليفة بغداد ، ويتصرفون به كيفما شاءوا . ويخطبون لذلك الخليفة في الجوامع ، ثم يهملونه كل الإهمال خارجها والظلم من شيم النفوس أخساً يا أبا الطيب ؟

— ومن مظالم سيف الدولة ما فعله ببني حمدان أبناء عمه .
« أكتب عليهم بصنوف الجور » — الكلام لابن حوقل — « حتى
خرجوا بذرارهم في اثني عشر ألف فارس الى الروم وتصرفوا
باجمعهم » .

— وكان يقف على مائدة هذا الامير اربعة وعشرون
خليياً — قل خمسة اطباء تجنباً للمباغة — لينصحوا له بتناول ما
ينفع مزاجه ، بينما الرعية تبكي من جوره وتشكو الى الله . . . قبح
الله وجهك ، ايها المتنبئ .

اما الآفة السياسية الكبرى في الدول العربية كلها فهي
هذه : عندما حمل الفاطميون على الحمدانيين استنجد هؤلاء
بصاحب الروم عدوهم الاول على عدوهم الجديد . الاجنبي ، ولا

الخصم العربي !

وقد استنجد بالروم أيضاً ذلك الذي خرج على الفاطميين
المسمى منجوكين ، فلم ينجدوه ، فكسره أبو تميم الفاطمي .
— « وركب أبو تميم المستنصر بالله إلى المسجد الجامع يوم
الجمعة بزى اهل الوقار (وهو من اهل الدعارة) وبين يديه القراء
وقوم يفرقون الدراهم على اهل المسكنة » . ولكن ذلك لم يغنه
شيئاً . فقد هجم الناس عليه في قصره ، وهو غائص في ملذاته ،
ففر من دمشق هارباً .

واشتعلت في المدينة نار الفتنة التي نفخ فيها رجل يعرف
بالدُّهْيَمَن ، فجاء محمد بن الصمصامة يحمي ناراها ، فأخذ انفاث
الوف من العباد .

— وكان اهل صور قد نفخوا في بوق العصيان (٣٨٨ هـ .
٩٩٩ م) وأمرروا عليهم رجلاً ملاحاً يدعى العلاقة ، ضرب
السكة باسمه وكتب عليها : « عز بعد فاقة ، لا مير علاقة » فارسل
الفاطمي عليه اسطولا ، فاستجار العلاقة بملك الروم ، كما استجار
قبلة الحمدانيون .

— وقام صاحب الروم دوقس انطاكية يبغي الاستيلاء على

افامية فرحف ابن الصمصامة عليه ققنلة وشتت شمل رجاله .
 — وكان المفرج بن دغفل بن الجراح قد نزل على الرملة
 وعاث فيها ، فجاء جيش الصمصامة يؤدبه . والويل من المؤدين .
 اما الصمصامة هذا ، الذي تولى نيابة دمشق للفاطميين ،
 فقد كان مثل سيف الدولة ظافراً سعيداً في حروبه . وكان
 كذلك ظالماً غتياً ، سفاكاً للدماء . قال المؤرخ : « وعمّ الناس
 في ولايته البلاء من القتل واخذ المال حتى لم يبق بيت في دمشق
 ولا بظاهرها الا امتلاء من جورهِ ، خلا من كان ظالماً يعينه على
 ظلمه . . . والظلم من شيم النفوس . . . لا رضى الله عنك
 ايها المتنبئ . »

وشيدت دولة بني مرداس على مبدأ الدولة الحمدانية .
 وكذلك دولة بني جراح ، ودولة بني سنان ، اي دول بني كلب
 — دول الكلاب كلها !

فمنذ سنة ٥٢٥٤ هـ الى سنة ٤٦٣ (٨٦٧ — ١٠٦٧ م) كان
 الحكم في هذه البلاد السورية حكم « ابنهاهاكم » . ولا فرق
 اذا كانت الدولة طولونية او اخشيديّة او حمدانية او كلبية .
 فبالتمس الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان المظلم ، وكل

جاكم فيه يارزي زميله ، اويياهي خصمه ، بالمظالم والمذابح ،
وبالنهب والسلب والسي والتدمير .
— اجنأها لكم ثلاثة ايام !
« للسي ما نكحوا والقتل ما ولدوا »

والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا »
يا للبول ويا للويل ، رحم الله من عاشوا في زمن الاباحات ،
ولا رحم الله اربابها وجنودهم . أبشر خلقوا على صورة الله
ومثاله يتحولون في ساعة واحدة الى وحوش ضارية ؟

وهل يستحق اولئك البرابرة خمسين صفحة في التاريخ ؟
انهم لا يستحقون والله اكثر من سطر ، فيه كل امرهم . فقد
تخاربوا ، وتكالبوا ، وذبحوا ، ونهبوا ، وفسقوا ، ودمروا .
وبكلمة اخرى : قد استباحوا كل حلال من عرض ودم ومال .
وهم ايضا اجدادنا .

الفصل العاشر

الصلبيون

ها أنا في دور السلجوقيين والتركمان الذين حكموا الشام
حقاً من الزمن وفاقوا الدول الكلية في الجور والفساد . والعجيب
من أمرهم أنه لم يكن يهمهم غير « اعلاء كلمة الله » .
هاكم السلطان آلب ارسلان الذي حمل كفته في الحروب
وما حمل في سبيل تلك « الكلمة » غير السيف ، يفتح حلب
(٤٦٣ هـ ١٠٧١ م) وفي من بلاد المسلمين لا من بلاد الروم .
ثم يحمل على الروم ليكفر عن ذنوبه في حلب فيكسرهم ويأسر
ملكهم . ثم يموت مطعوناً بخنجر احد اعدائه المسلمين « اعلاء
لكلمة الله » .

وهذا ألتز بن أوق احد كبار التركمان . اسم العجبي عجيب
وشخصية بربرية أعجب . حاصر ألتز دمشق مراراً فظفر بها
(٤٦٨ هـ ١٠٧٦ م) افكان الفتح وكان الخراب المبين .
— « خربت دمشق واعمالها وخذلت الاماكن من قاطنيتها ،

والغوطة من فلاحيتها . وهان على الناس ترك الديار والاملاك .
لما قاسوه من مظالم هذا الاتسر بن أوق ؟
وما كان خيراً منه بنو اتابك وبنو أرتق الملوك المماليك الذين
ختموا مظالم الاجيال في اواخر القرن الخامس للهجرة . ختموها ؟
قل : خرجوا من مسرحها .

وبدت اذ ذاك طلائع الطامة الكبرى في هذه الديار
السورية - طلائع الحروب الصليبية التي استمرت في حالة
منقطعة متني سنة (٤٩٠ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩٠ م) .

هو عهد الظلمات في اوروبة . او هي الاحقاب المظلمة ، كما
تدعى هناك . وقد كانت ظلماتهم اشد من ظلماتنا . وكذلك
الظلمات . اما الاسباب ، الاسباب كلها هنا وهناك ، فهي
تتخصر في ثلاثة ، الجهل والطمع والتعصب الديني .

نعم ، قد جرت الدماء البشرية انهرأ باسم الدين . وهدمت
موارد الحياة وصروحها باسم الدين . وزرعت الارض عظاماً
انسانية باسم الدين . وامتلاء الفضاء سماً وظلاماً باسم الدين .
وناسلت الشعوب بالغل والشنان من اجل الدين .

كانت تلك الحروب الدينية اعظم ويلاً على البلاد السورية

من سواها . وكان الصليبيون اشد ظلماً وتوحشاً من اولئك
الامراء الاسيويين ذوي الاسماء العجيبة ، الذين اجتاحتوا باسم
الاسلام ، بل باسم السنة مرة والشيعية اخرى ، هذه الديار
التاغية البائسة المشؤمة .

— وهالك واحد من اتباع شيخ الجبل حسن الصباح
الاسماعيلي ، وقد استولى علي دمشق وشرع يمثل الجحيم — لا الجنة
مثل شيخه الشيخ حسن بالموت — علي الارض .
كثرت قبائح شمس الملوك اسماعيل وقبائح عماله . وقام بعد
ذلك ، نكاية باهل السنة ، يخون البلاد فيسلمها الي العدو الافرنجي
فقتلته امه لتريح المسلمين من شره وظلمه .

— واولئك الافرنج ، وقد فتحوا القدس ، « يكرهون
العرب علي القاء انفسهم من اعالي البروج والبهوت — الكلام
للمؤرخ الافرنجي ميشو — ويجعلونهم طعاماً للنار . ويخرجونهم
من الاقبيية ، ويحرقونهم في الساحات ، ثم يقتلونهم فوق جثث
الادميين . وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون اهله ، ويخربون
عمرانه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره » .

وكان الافرنج في انطاكية وغيرها (من بلاد العلويين)

يماثلون الاسماعيليين ، وهم كفرة في نظرهم مثل المسلمين ،
فظاهروهم على اعداء الصليب كما يظاهرون الفرنسيين اليوم
على العرب .

وقد نصر الموارنة كذلك الافرنج كما نصروا الرومان على
العرب من قبل ، وكما نصروا الفرنسيين من بعد .

والغريب العجيب ان يجمع الغرض بين هاتين الاقليتين
المارونية والعلوية ، وكلاهما متمسكة بعقيدتها وباوليائها اشد
التمسك ، فتسلكان مسلكاً واحداً في الماضي وفي الحاضر ،
وتكونان مع السائدين من الاجانب على اهل البلاد الوطنيين .

لم ينتصر الصليبيون في باديء امرهم لمجرد ان الموارنة
والعلويين ساعدوهم على المسلمين . بل لانهم كانوا متحدين ،
وكان امراء العرب متنايذين متخاذلين . . . وكيف يخضع
صاحب آمد لصاحب دمشق ، او صاحب حلب لصاحب الموصل ،
وكل منهم يظن نفسه ظل الله على الارض .

قف ها هنا ايها القاري ، وفكر قليلاً في حاضر هذه الامة ،
وفي التفريق المصطنع وغير المصطنع في البلاد ، في هذه البلاد
السورية القديمة وليس فيها شيء جديد . بل قل وانت منها :

ما أضعني وما أذلني اذا كنت لا ائبذ مثل ذلك الماضي ،
ولا اخرج على مثل هذا الحاضر ، فاسعى واجاهد ليصكون في
بلادي شي ، جديد ، شي ، شريف ، سديد مفيد .

لم تخل الحروب الصليبية من كبير او كبيرين في كرم
الاخلاق كنور الدين وريكاردوس قلب الاسد وصلاح الدين .
ولكنهم في الحرب واحد فصلاح الدين مثلاً مثل
سواه من الفاتحين ، يقطع الاشجار ، ويحرق الزرع (اذكر وصية
ابي بكر لابي عبيدة) ووقع الآمنين ، ويحلي الفلاحين ، ويقتل
خلقاً كثيراً ، كما قال هو نفسه في رسالة الى اخيه ، لانهم لم
يقبلوا الاسلام .

قال المؤرخ : « بينا كانت داخلية البلاد مشغلة بالنصب
والعزل وتقاتل ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان ،
اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا الى عكا ، فضربوها
واحتلوها ونهبوها الخ .

هم متحدون وانتم متشاقون متخاذلون . انتم الفاطميون
وفيكم المعز الدين الله والمستنصر بالله والحاكم بامر الله الذين نبرأ
منهم الى الله . وانتم الايوبيون وفيكم الصالح والعاقل والكامل

والاشرف والافضل والطاهر والناضر ، وليس فيكم والحق يقال
الا القليل القليل من العدل والفضل والصلاح . فالكامل ناقص ،
والعادل ظالم ، والظاهر مكسور ، والناس مَرَّهقون ، مظلومون
على الدوام .

فهل يلامون اذا هم سلكوا مسلك الثعالب الى خيرهم ، بل
الى خلاصهم ؟ قال ابن ابي شامة : « كُسرَت الفرنج ومن انضم
اليهم من منافقي الاسلام كسرة عظيمة في عسقلان » .
من منافقي الاسلام ؟ على رسلك ابن ابي شامة . فقد كان
الناس في تلك الايام مثل ملوكهم يعملون لصالحهم قبل كل شيء .
وليس ثمة وطنية يخلصون لها او يخونونها .

انت سوريه بلادي ،

انت مهدي الانبياء .

الفصل الحادي عشر

هول هولوكو

هبت هبوب الجحيم من الشرق ، من قلب آسية ، ففشيت سورية بلاددي . جاء هولوكو بجيوشه التتر والمغول (٦٥٨ هـ - ١٢٥٩ م) يحملون السيف والنار ، ولا يحسنون غير القتل والدمار . فاستولوا على القلاع والحصون ، وقتكوا بالناس فتك الضواري ، ودخلوا المدن فاتحين ، ناهبين ، محرقين ، مفحشين . وكان نصارى الشرق والاسماعيلية (وما الصلة بين الاثنين غير تألم المستضعفين) من الشامتين لما حل بالشام من هول هولوكو قال الذهبي : « ورفعوا (نصارى الشرق) الصليب في البلد والزموا الناس بالقيام له في الحوائت ، ونقضوا العهد وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح » .

وما لبث ان انتصر المسلمون على هولوكو في وقعة عين جالوت بين ينسان ونابلس « فجاء الخبر الى دمشق في الليل ، فوقع النهب والقتل في النصارى ، وأحرقت كنيستهم العظمى » . . .

— وسارت العساكر الاسلامية الى فتح حجة بشرية ،
فصعدوا في وادي حيزونا « وحاصروا اهدن حصاراً شديداً ،
وبعد اربعين يوماً ملكوها ، فنهبوا ، وقتلوا ، وسبوا ، وهدموا
القلعة التي في وسط القرية ، والحصن الذي على رأس الجبل » .
ثم فتحوا بقوقا ومملوياً كبيرها ، وضربوا الحصون ، وأحرقوا
الحديث . . . وظهر الدين الصحيح ، دين المسيح . لله من تاريخ
هو سلسلة من النكبات والانقذات .

اما المغول فقد قصدوا دمشق في سنة ٦٨٣ (١٢٨٤ م) .
وعفوا عنها . انما الاعمال بالنيات . ثم ذهبوا الى وادي التيم
فأحرقوها ، وسبوا اهلها ، وقتلوا منهم نحواً من سبع مئة نفس .
— وزحفت عساكر المسلمين الى طرابلس حيث كانت
بقية من الصليبيين ، فحاصروا المدينة ، فلجأ اهلها الى المراكب في
البحر ، فلاحق العسكر بهم الى الجزيرة قبالة المينا . عبروا البحر
بجيوهم اليها ، فقتلوا جميع من كان فيها من الرجال . اما النساء
فقد فضلن الموت على ما حل بهن . « وامر السلطان فهدمت
طرابلس ودكت الى الارض » .

— ونزل الكروانيون والجرديون من لبنان النجدة الفرنج

فقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً . فصدر الامر من نائب
دمشق الى القائد العام أن اجمع العساكر الشامية وازحف بها على
الجبل لاستئصال شأفة اهله .

صعد الجنود الى معقل اللبنانيين فحاقوا بها ، ودخلوها ،
فذبّحوا بالرجال ، وسبوا النساء ، وجعلوا اعالي الديار اسفلها .
وكان ذلك كله في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد .

.....

لبنان بلدي ، راح الصليبي وبقيت انت ، فهلاً تعلمت ! ؟

الفصل الثاني عشر

دولة المماليك

عفّ هولاكو عن دمشق ، فجاء بعد خمس عشرة سنة
 حفيده غازان بجيش من التتر جرّار ، فكسر المسلمين في جوار
 حمص ، وتبع المهزمين حتى بلغ دمشق ، ففصرها واستولى عليها ،
 ونهب ضياعها ، وسبى أهلها .

قال المؤرخ : « اسروا من الصالحية نحو اربعة الاف نسمة
 وقتلوا نحو ثلاثمائة اكثرهم في التعذيب على المال » .

وقال غازان انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون
 من طريق الدين ، غير متمسكين باحكام الاسلام . وكان اولئك
 الحكام المسلمون يحاربون النصارى لانهم كفرة مشركون .
 سبحان الله ؟

وقال مغلطاي : انه حمل الى خزانه غازان ثلاثة الاف الف
 دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل
 والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء . هوذا طريق الدين القويم ؟

وهاكم بعد غازان مئة سنة (٦٩٠ - ٧٩٠ هـ : ١٢٩٠ - ١٣٨٧ م) من دولة المماليك البحرية ، المماليك الشرکس والاثراک ، الشديدي النعرة الدينية ، القليلي العدل والحكمة ، الضعيفي الحلم والارادة ، الجالسین على العرش بالقاهرة ، الحاكمين بامرهم في بلاد الشام . .
فما كاد يزول كابوس الصليبيين عن البلاد حتى احتدم القتال بين عمال المماليك والتتر . فسرت ضروره الى لبنان ، فقام الكسروانيون ثانية يناوئون الشاميين من اجل من تبقى في السواحل من الافرنج .

وكانت وقعة عند جليل ، فكسر الكسروانيون الجيش الشامي ، وقتلوا اكثر رجاله ، فغنموا امتعتهم مع اربعة الآف رأس من الخيل .

واستمر النزاع بين الفريقين ، فجاء الافرم نائب دمشق بنفسه يقود جيشاً عظيماً ليفتح كسروان من الجهة الشمالية (فسميت تلك الجهة الفتوح ؟) بل كانت الحملة على بلاد الظننين (الضنية ؟) « فدخل العسكر تلك الجبال فخرقوا القرى ، وقطعوا الكروم ، وهدموا البيع ، وقتلوا جميع من صادفوا من الكسروانيين » .

ثم ظهرت في حوران فتنة بين اليمانية والقيسية ، فتقاتلوا قتالاً شديداً ، وبلغت المقتلة ألف نفس .

— وهاكم جيش التراكين والعربان يزحف الى آمد فيباغتها وينهب اهلها المسلمين والنصارى .

— وهاكم الارمن (كان قد سبق لهم مع المسلمين مواقع ومناجزات وغزوات وكسرات) يعودون الى مدينة سيس فيملكونها ، ويطردون من كان فيها من المسلمين ، ويعملون ايدي النهب والخراب في آذنه وطرسوس مثل سواهم من المتغلبين .

يوم لنا . ويوم علينا . ولا يوم للرحمة ، ولا يوم للحكمة ، ولا يوماً واحداً للتساهل .

— وهاكم الافرنج يعودون الى بيروت في عشرين مراكباً ، فيقوم من يدعو الناس للجهاد في سبيل الله ، فيلي الدعوة جماعة من البيروتيين ، فيحولون بين الافرنج والبحر ، ويذبجونهم وينقمون مراكبهم .

— « ومن الاحداث » ان نائب الشام يلجأ اليها ليجأ اليه

هرب منها ، فتبعه جماعة من عسكرها ، فقتل معهم ، ففقطعوا رأسه ، وحملوه الى السلطان بمصر . ولماذا هرب يديتغا ؟ الجواب في التوراة (امثال ٢٨ : ١)

واشتد غضب نائب حلب يديتغا آروس (اخو يلغافي الجنسية والهمجية) فأمر عسكره بان يذهبوا دمشق وضياعتها ، ويقطعوا الاشجار . فذهبوا فوق ذلك « النساء والبنات والقماش » وجرى على اهل دمشق من يديتغا آروس (السلام على أسيتر بن أوق) ما لم يجر عليهم من عسكر غازان .

— وظهر في جبال النصيرية (العلويين) رجل يدعي انه الامام المنتظر ، الامام الثاني عشر ، وانه المهدي ، وانه علي بن ابي طالب ، وانه المصطفى ؟ فتبعه نحو الفين من اهل تلك الجبال ، فهجم بهم على جبلة ، والناس في صلاة الجمعة ، فذهبوا باسم علي والمهدي والامام المنتظر .

— وفتح المسلمون جزيرة ارواد فذهبوا الفين من كانوا فيها من الافرنج واسروا الباقين .

— وقتل السلطان نائبه في الشام تكرر (التري) الذي

قتل أناساً كثيرين ، فارتاحت البلاد » .

السنين يذبحون النصاري ، والاسماعيليون العلويون
 ينهبون ويذبحون السنين ، ويذبحون ويذبحون وتتكسر واتباعهم
 ينكلون بالسنين والعلويين والنصارى جميعاً .

انت سوريه بلادي !

انت عنوان الفجامة !

الفصل الثالث عشر

اهوال تيمورلنك

وهذه بعد مئة سنة من الممالك ثلاث عشرة سنة سوداء
(٧٩٠ - ٨٠٣ هـ = ١٣٨٧ - ١٤٠١ م) من اهلوال تيمورلنك
المدّمر المميت ، الذي شرف الشرق الاذنى بدعوة من امرائها .
لست مازحاً في ما اقول . فان الامراء المتنازعين المتخاذلين هم
الذين « فتحوا تيمورلنك السبيل لغزو البلاد غزوة اذلت
العزير ، وافقرت الغني ، وخربت العامر » .

وسيدي صاحب « الخطط » مثل سائر المؤرخين العرب
لا يسمعه من الامة على ما يظهر غير الاعزاء فيها والاغنياء . اما
الشعب الذي يدفع الخراج ، ويأكل الكرباج ، فعليه بهلة
المتباهلين .

وكان تيمورلنك هذا صاحب دعوى « آلمية » منكزة .
الا انه ، وقد دخل في الاسلام ، لمن المرسلين المقربين .
— « بلغنا امر الهند وما هم عليه من الفساد ، فتوجهنا اليهم ،

فأظفروا الله تعالى بهم . ثم زحفنا الى الكرخ فأظفروا الله بهم (تعالى الله عن مخالفة مثل هذا القول المغولي) ثم بلغنا قلة اذب هذا الصبي ابن عثمان ، فاردنا عرك اذنه ، فشغلنا عنه بسيواس وغيرها من بلاده .

وفتح تيمور ، صاحب هذا الكلام ، مدينة حلب فتحاً ميبناً ، فنهب ، وسبي ، وقتل . وطارد الجنود النساء فلجأن الى الجوامع . وكانت المرأة تطلي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها . - الكلام من كتاب كنوز الذهب - « فيا في عدو الله اليبا ويفسل وجهها ويحاميها في الجامع » . . . « وصارت الابكار تفتض في المساجد وآباءهن يشاهدونهن » . اربعة ايام كاملة من هذه الاباحات ، من هذه الفظائع - و - « وأظفروا الله بحلب واهلها » .

اما دمشق فدخلها تيمور صلحاً . ولكنه قسم البلدين امرائه ، فنزل كل امير في حيه ، وطلب من فيه وطالبهم بالاموال . فلما باهل دمشق من البلاء ما يقف اليراع عنده عاجزاً . وجرى عليهم من اصناف العذاب ، وهتك الاعراض ، ما تقشعر منه الابدان . ثم سبوا النساء باجمعهن ، وساقوا الاولاد

والرجال مربوطين بالجبال . وبعد ذلك طرخوا النار في المساجد
والمنازل ، وكان يوماً عاصفاً فعم الحريق المدينة كلها .

وبعد خمسة وخمسين وعشرين سنة من هذا الحريق
يحيىك يادمشق من الغرب قوم متمدنون ، فيدبؤون في دباباتهم
هادمين ، ويطيرون في طياراتهم مدمرين ، وبحرقون قصورك ،
ويشعلون بابنائك المجاهدين في الساحة التي شهدت مئات من
الكوارث والتكبات .

اما صاحب « وأظفرنا الله بهم » فقد اجتاح البلدان السورية
الكبيرة كلها ، واعمل فيها ، بعد النهب والسبي ، السيف والنار .
وجاء بعد تيمورلنك الجراد ، وبعد الجراد الطاعون ، فهلك
في دمشق وحدها خمسون ألف نفس .

وبعد خمسة وخمسة عشرة سنة عاد تيمورلنك متجسداً

في الحرب العظمى ، وغزا الجراد لبنان في سنة الحرب الاولى . ثم
جاءت المجاعة فهلك في الجبل وحده مئة الف نفس .

لبنان بلدي ،

سورية بلادي ،

أمن نكبة الى نكبة على الدوام ؟ !

الفصل الرابع عشر

الى المزبلة

استمر عهد المماليك الاخير مئة سنة ونصف (٨٠٣-١٥٩٢٢ = ١٤٠١-١٥١٦ م) حدث في اثنائها في البلاد السورية مئة فتنة وفتنة . واليك بمثال ملكي من اولئك المماليك يدعى الملك الناصر . هو الملك الفاجر السكير الذي كان يصدر اوامره الى عماله في سورية وهو في ضجة من السكر منكرة . « وكان يتسلى في خلواته » كما يقول الاستاذ كرد علي « بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء الف مملوك للتسلية والتحلية » .

اما التسلية ففهمومة . ولكني لم افهم معنى صديق المؤرخ في « التحلية » فهل كان يزين القصر برووس اولئك المماليك ام كان يحلي شرابه بدمائهم ؟

على ان الناصر كان في نهاية امره مدحوراً مذموماً . فقد لقي ما يستحقه في دمشق اذ خلعه القضاة واثبتوا عليه الكفر لانه سفاك للدماء ، مدمن للخمر ، خلع ، ومجن . ثم قتله في السجن .

بعض الفدائيين ، واقفوه على مزبلة خارج البلد وابقوه هناك ثلاثة ايام عبرة للناس ، فكانوا يحثون افواجا يتفرجون عليه .
— « وكانت الدنيا في ايامه حائلة ، وحقوق الناس ضائعة .

وقد خربت غالب البلاد الشامية لما قتل من ابطال ، ويتم من اطفال الخ . . . »

وهاكم الملك الاشرف برسيبي خلفه بعد بضعة سنين بالجزائر والمعاصي . هو برسيبي « الرجل العظيم » برأي سيدي صاحب « الخطط » .

وقد قال فيه المقرئ : « كان له من الشح والبخل ، والطمع والجبن ، والحذر وسوء الظن ، ومقت الرعية ، وكثرة التلون ، وسرعة القلب في الامور ، اخبار لم يسمع بمثلها . ذلك مع بلوغ آماله ، ونيل اغراضه ، وقهر اعدائه ، وقتلهم بيد غيظه . . . وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب . وقأت الاموال فيها ، وافترق الناس ، وساءت سيرة الولاة والحكام . »

فهل يستحق هذا « الرجل العظيم » غير ما كان من جزاء سلفه الملك الناصر ؟

الى المزبلة بمثل هؤلاء الملوك !

الفصل الخامس عشر

آل عثمان

عندما وصل الاتراك في فتوحاتهم الى الاستانة في اواخر القرن الخامس عشر كان قد انفتح في اوروبة ثلاثة ابواب المدينة الحديثة ، الاول فتحه لوثيروس في ثورته على الكنيسة والبابا ، والثاني فتحه غوتمبرغ في اختراعه حروف الطباعة ، والثالث فتحه كولبوس في اكتشافه اميركة .

اجل ، ان ذاك الاصلاح الديني وذيئك الاختراع والاكتشاف لمن انوار المدنية الاوروبية التي استمرت في التقدم والارتقاء ، بينما كان الشرق الادنى يتعبط في الظلمات ، فمببط من دركة الى اخرى ، ولا يخلص من ظالم سفيه ، إلا ليُبلَى بن هو أظلم وأسفه .

خرجت الامة السورية من حروب الصليبيين ، وإغارات المغول ، ومظالم الشرسة ، ومن مخالب الاوبئة والجاعات ، وهي على آخر رمق من الحياة . لا ثروة ، ولا علم ،

ولا صناعة ، ولا امل بعيد اليها النشاط للعمل . فتطلع الناس الى الدولة التي اسمها السلطان عثمان التركي في انقراض الدولة السلجوقية ، وهي يومذاك في اباب شبابها ومجدها ، وعقدوا عليها الآمال .

هو الخطأ الذي يخطأه السوريون ، او بالحري الاكثرية في السورين وهم المسلمون ، اذ يظنون ان العمران والرقى والسعادة القومية لا تكون الا بدولة اسلامية ذات صولة واقتدار . اما العدل والمساواة ، والرفق بالرعية ، واحياء البلاد بالمشاريع الاقتصادية والصناعية ، فهي على ما يظهر امور ثانوية .

لولا ذلك لما كنا نتغنى بالدولة الاموية ، ونحبذ تجديداتها ، وقد رأيناها ، وهي في ذروة المجد والاقتدار ، بعيدة عن ذلك العدل الذي زان سيرة الخلفاء الراشدين ، فلا تحسن معاملة الاقليات في المملكة حتى ولا العصبيات العربية الاسلامية خارج عصبيتها . والمشكل الاكبر في كل زمان من ازمته هذا التاريخ هو هذه الاقليات والعصبيات التي نسي اليها ، او لا تعدل فيها ، فندفعها الى المقاومة الطائشة العمياء التي تضيع عندها حتى مصالحها . وانا نلوم بني امية لانهم من حق العرب ومن اقرب الناس

الى ذاك الينبوع الانساني الذي تفجر بمكة ، ينبوع العدل والاخاء
والمساواة . ولكن هناك ، كما تبين لنا ، من هم ابعد من بني امية
بمرآحل عديدة عن الضالة المنشودة .

فقد أضر الاسلام والمسلمين شعوب اسبوسية همجية ،
دخلوا في هذا الدين العربي ولم يدخل في نفوسهم الا القليل القليل
من فضائله ، فظلوا على فطرتهم الممجية ، وقبائلهم اهل الشام حكماً
لمجرد انهم مسلمون ذوو صولة واقتدار . وقد كان حظهم وحظ
اخوانهم ابناء الوطن الواحد من اولئك الفاطميين والايوبيين
والشراكسة والتركمان ما هو مدون في التاريخ ومالخص في هذه
النبذة منه .

وما كان الشقاء ليعلم سورية شيئاً في انقاء شرور مثل تلك
النزعات والسياسات . ولا كانت العبر تؤثر في رؤساء الامة ،
وهم كلهم ينشدون مصالحهم الخاصة . لذلك طفقوا يتلونون
ويتذبذبون في اخلاصهم للملوك المالك عندما خفقت اعلام الهلال
الاحمر على صفاف البسقور وفوق حصون الاستانة .

وما كان آخر ملوك الشراكسة في الشام ، قانصوه الغوري ،
ليحدث حادثاً في تطور الامة ، او ليوقف عاملاً من عوامل

الفساد والتفكك في الملك . بل كان هو من تلك العوامل نفسها
وكان فوق ذلك هرماً خرفاً ، يعتقد بعلم الجفر ، ويتيقن ان
الشر سيأتيه من رجل يبدأ اسمه بالسين . اما الاعجب من ذلك
فهو ان يصح مثل هذا اليقين .

هاكم اسماً يبدأ بسيين اثنين - السلطان سليم .

باشر هذا السلطان العثماني فتوحاته بقتل اربعين الفا من
الشيعة في الاناضول . ثم زحف الى الشام ، فجرد الغوري جيشاً
للمدفاع اكثره من المتذبذبين ، فانكسر في وقعة مرج دابق
(٩٢٢ هـ ١٥١٧ م) وتوفي هناك .

وكان بين قواده الامير نحر الدين المعني الاول (جد
المعنيين الذين تولوا الحكم بعدئذ في لبنان) الذي تردد وقومه في
القتال قائلاً : دعونا ننفر لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه .
وكلمة المعني هذه مثل حال اكثر من انضموا تحت لواء الغوري .
بعد وقعة مرج دابق استيقظت الفتنة في دمشق . ولكنها
لم تدم غير بضعة ايام ، فاخليت المدينة للسكينة بعد ذلك وفتحت
ابوابها للسلطان العثماني .

وما لبث الاهالي ان اتوا اثنين الضعيف المظلوم من

الضرائب الفادحة التي ضربها الفاتح على طبقات الناس كلها ولم يستثن حتى المؤسسات .

وكان هذا السلطان ممن يحترمون الاولياء وازباب الكرامات ، ويستمدون من ارواحهم القدسية ، فامر بتعمير القبر المتداعي للعارف بالله محيي الدين بن عربي ، وانشأ في جواره جامعاً وزاوية ، ووقف عليهما وقفاً كبيراً .

ثم زحف بجيشه الى مصر ففتحها ، وقتل ملكها طومنباي الذي بايعه المصريون بعد موت الغوري ، ونكّل بالشراكسة .

اما اهل الشام فقد قاسوا كثيراً من جنود سليم المرابطين ، اذ كانوا يقطعون الاشجار ، ويرعون الازراع ، ويخرجون الناس من بيوتهم ليتعتقوا بها ومن فيها من الحسان .

وعندما عاد السلطان سليم بعد الفتح المصري ، بدل ان يؤدب جنود الحامية ، اذن لجنوده ايضاً ان يدخلوا البيوت ، فدخلوها فاتحين — والويل للحسان والولدان .

سرعان ما صار الناس يترحمون على الشراكسة ، كما يترحمون على الاتراك اليوم . ليس في هذه البلاد السورية شيء جديد .

كان السلطان سليم سفاحاً سكيراً لو اطاع . لا يهمة بعد
(النكبات) ٦

فتوحاته وقتل الشراكسة ، غير لذته وسكره — الكلام لابن
آياس — واقامته في المقياس بين الصبيان المرد . وكان يقتل
وزراءه وغيرهم في ساعة غضب بدون سبب . فقد قتل سبعة من
الوزراء ، وخنق سبعة عشر من اخوانه ، وغيرهم من اهل بيته
حين تولى الملك . ومن امثال الاتراك السائرة في تلك الايام :
من اراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم .

لذلك كان الوزراء يحملون صكوك وصاياهم في جيوبهم —
او هي من نكات ذلك الزمان — ويهأون كل مرة يخرجون من
المجلس السلطاني سالمين . مجلس السلطان سليم ، من دخل اليه
من الوزراء مفقود ، ومن خرج منه مولود .

وهو في اسفاره مثله في مجلسه . لاحظ الصدر الاعظم
يونس باشا ، وهم في الطريق الى مصر ، ان في قطع الصحراء
هلاك الجيش ، فضرب السلطان عنقه . واجترأ احد الوزراء ان
يعترض على ابقاء اوقاف بعض الشراكسة بيدهم قائلاً : سيستعينون
بها علينا . فقال السلطان ، وهو يركب جواده ، اين الجلال ؟
فضرب عنق الوزير ، بينما كان صاحب الجلالة العظمى يضع
رجله في الركاب .

هذا هو مؤسس الدولة العثمانية في البلاد السورية . وقد
عاد بعد فتحها الى الاستانة ومعه اجمال لا تعد من المال والتحف
وانواع الاسلحة والزينة مما كان في قلعة حلب وغيرها .
اما ادارة البلاد فلم يغير شيئاً في جزئياتها . ظل ارباب
الاقطاعات مثلاً كما كانوا في دولة المماليك يضمنون الخراج ،
ويحملون الكرباج ، فيدفعون للولاة مما يجمعون ، وهم في ما
يجمعون لا يرجعون .

ولاهم 'يرحمون' . فاذا غضب الوالي على احدهم لتأخره عن
الدفع مثلاً يرسل عليه جيشاً من الانكشارية فيخرب قراه ،
ويستصفي امواله ، ويأسر اهله ، ويسبي نساءه . فهل يلام المسكين
اذا حمل الكرباج ؟

من اولئك الاقطاعيين ، في بداية العهد العثماني ، الامير نقر
الدين المعني الاول حاكم الشوف ، والامير جمال الدين الارسلاني
حاكم الغرب ، وبنو شهاب في وادي التيم ، وبنو حرقوش في
جبلبك .

وكان من قواعد الدولة ان تولي امورها الكبرى لولايتها

وقضايتها والصغرى لآبناء البلاد . ولكن الولاية ^(١) كانوا يتنازعون
مناصبهم بالمزاد في دار السلطنة ، فيرهبون بعد ذلك ، ويسخرون ،
وينتصبون ، ويختلسون ، ليعتوضوا على انفسهم فلا يكونون في
الاقل من الخائرين .

من امثال هذه التجارة بل هذا الاستعباد أن امر السلطان
مراد مرة بان يكتب الى احمد باشا كوجك والي الشام ليدفع الى
السلحدار باشا عشرين الف ليرة (المتبقية على الوالي في الحساب)
ويبقى في منصبه . فادى كوجك المبلغ وهو يحمد الله .

ولا تظن ان السلطان الصالح المقدر كان يستطيع ان
يصالح امراً في هذه السلطنة القائمة على حدّي السيف والدينار ،
او يغير شيئاً كبيراً في احوال امّة لم تنفذ في الالف سنة التي
خلت بغير المظالم والحروب .

وهل ياترى في سلاطين آل عثمان سلطان صالح ؟ قد

(١) وغير الولاية . جاء في تقرير لاحد قناصل البندقية (المخططة :
الجزء الثاني صفحة ٢٨٣) ان منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من
٨٠ الى ١٠٠ الف دوكا . ومنصب الدفتردار يتراوح من ٤٠ الى ٥٠ الف
دوكا الخ (الدوكا نصف ليرة ذهباً)

تعرفت ايها القارىء الى السلطان سليم الاول ، وساعرفك الى بضعة من خلفائه الذين يبرزون في ما فطروا عليه حتى عبد الحميد الثاني .

خلف السلطان سليم ابنه سليمان السلطان القانوني - القانوني بالقتل ، فقد كان كأبيه سفاحاً ، قتل ابنه الاكبر وحفيده وابنه . يا يزيد واولاده الخمسة . فلا عجب اذا كانت يقتل كذلك وزراءً افاضلاً حال دون تنفيذ ذلك الامر « القانوني » بقتل اهل حلب اجمعين لان جماعة منهم ثاروا على الحكم العثماني . وهاكم سليم الثاني السلطان السكير الفاسق « له من اعمال الخلاعة ما ينجعل منها » وقد خنق ارباب القصر ، عند وفاته ، اولاده الخمسة ليعجوا نسله ، فكان عملهم ذاك من باب التشذيب الذي يزيد الشجرة قوة ونموً .

وهاكم السلطان مراد الثالث الذي قتل اخوته الاربعة عندما تولى الملك ، وهو الذي حارب المواردية في لبنان ليرضي طائفة الروم التي شكت اليه ظلاماتهم ، فوسّع ثلمة الشقاق السياسي الديني في الجبل .

وهذا محمد الثالث الذي قتل يوم جلوسه على العرش تسعة

عشر أخاه ، وعشر جوار حاملات من ابيه « وكان مع ذلك صالحاً دائماً ، ساعياً في اقامة الشعائر الدينية » ؟
وها كم مصطفى الاول السلطان الابله ،

يخلعه مراد الرابع السلطان السفاح الذي كان كأسلافه منهكاً في شهواته ولذاته . ولكنه يزعم جميعاً بالقتل . قيل انه قتل مئة الف انسان ، منهم خمسة وعشرون ألفاً قتلهم بنفسه او شاهد قتلهم بأم عينه .

وهذا السلطان ابراهيم الفاجر المعتوه ، الذي هلك في الثامنة والعشرين من عمره شهيد الغواني والكؤوس . ان عهده لعهد الجواني والأغوات . قيل انه كان ينكح كل يوم بكراً ، ويقتل كل من يخالف له رأياً ، او يأبى ان يرسل اليه ابنة حسنة . يسمع بها .

وقد امر السلطان ابراهيم مرة بقتل جميع المسيحيين في السلطنة ، فقال شيخ الاسلام معارضاً : « ان في قتلهم نقص واردات الملك » فاقنع وامتنع .

اننا نقف رفقاً بالقاري عند ابراهيم ، فنفسح مجالاً لبعض

الحوادث المتعلقة بهذه الديار البائسة المشنومة .

ما اهتم سلاطين آل عثمان في بلاد الشام لغير ما اهتم له
الخلفاء العباسيون ، اي لضرب السكة والخطبة والخراج .
السكة باسمنا ، والخطبة والخراج لنا ، ولكم بعد ذلك ما تشاءون .
فهل يستغرب الخروج على مثل هذا الحكم ؟ انما يستغرب ان
يقبله الناس سنة واحدة ، ناهيك بمئة سنة .

فما كاد ينتهي القرن السادس عشر حتى سمعت في ذلك
الليل الدامس اصوات المظلومين ، ولعلت سيوف الزعامات الوطنية .
نعم ، خرج الناس على الحكم العثماني . ولكنهم كانوا مدحورين ،
لانهم لم يكونوا متحدين متضامنين .

فقد حارب امراء الاقطاعات في لبنان بعضهم بعضاً .
وكانت في السنة الاخيرة من القرن السادس عشر وقعة نهر
الكلب بين ابن معن العربي وابن سيف الكردي ، فانكسر ابن سيف
وتشتت جنوده ، واستولى نحر الدين المعني ، الذي كان في
طليعة الخوارج ، على بلاد كسروان وبيروت .

وكان قد ثار في حلب علي باشا جان بولاذا التركماني ، فاستولى
على قسم كبير من البلاد التي تليها ، وظل مستقلاً في حكمه

سنتين ، فخرت الدولة عليه جيشاً كبيراً زحف الى حلب ففتحها
وباع الاتراك عيال جان بولاذ بيد الدلال ، فبيعت امه بثلاثين
قرشاً . ثم مثلوا بالوف من المشاغيين وأتوا بروءوسهم الى الوزير .
وزحف هذا الجيش الى دمشق فقال الشاعر مؤرخاً :

دخل الشام جيوش كجمال قد رغبوا
نهبوها في جمادى اخشوا أرخ طغوا

١٠١٦

وكان الامير نحر الدين المعني قد ازداد شوكة في استيلائه
على كثير من القلاع وتحصينها ، فتعاون عليه ولاية دمشق
وطرابلس وديار بكر وحلب ، فجندوا جيشاً كبيراً وحاصروه
تسعة اشهر (١٠٢٠ هـ : ١٦٠٢ م) فضاق ذرعاً ، وهو لا يستطيع
الدفاع ولا يريد التسليم ، فاخفى . ثم هرب في السنة التالية الى
إيطالية تاركاً الحكم في لبنان وما اليه لابنه علي .

سكنت مراحل الفتن بعد كسرة جانب بولاذ وسفر نحر
الدين الى ايطالية . ولكنها عادت تغلي عند ما رجع الامير بعد
خمس سنوات وقد حالفه كوسموس الثاني كبير دوجات طسقية ،

فاستولى المعني بمساعدة الاسطول الطشقاني على ساحل سورية ،
واستأنف الحرب في سبيل الاستقلال ، فاستظهر والي دمشق
بيني سيفا وبني حرقوش ، فحملوا على المعني (١٠٣٣ هـ : ١٦٢٣ م)
فواقعوه في عين الجرج (عنجر) وكانوا مغلوبين .

قويت كلمة نحر الدين وعظم شأنه في البلاد ، فارسلت عليه
الدولة جيشاً من الاناضول تشفعه باسطول للاستيلاء على
السواحل . فكسر الثائر المعني الجيش العثماني في وقعتين قرب
صفد ، ثم انكسر في وادي التيم . وكان الاسطول بمساعدة بنو
سيفا وغيرهم من اعداء نحر الدين قد استولى على الساحل فلتشت
المعنيون .

ومن عادات الامير المعني ان يختفي ، فاخفى بعد وقعة وادي
التيم ، ثم سلم نفسه الى الوزير العثماني ، فأرسله الى الاستانة ،
فسمع السلطان مراد الرابع عذره في محاربة اعدائه وعفا عنه . إلا
انه ابقاه هناك اسيراً . ثم امر بقطع رأسه ، وبخنق ابنه الاكبر ،
ووهب املاكه الى والي دمشق .

اما السبب في قتله بعد العفو عنه فهو غامض بعض الغموض
بيد ان الحوادث التي تلت التسليم لا تدل على شيء من الحكمة

او من حسن النية في الدولة .

بعد اسر نخر الدين امرت على لبنان عدوه علي بن علم الدين
اليميني ، فبادر هذا الى التكيل بال معن وبني تنوخ انصارهم ،
وضبط ارزاقهم (انما تار يخنا سلسلة من النكبات والانتقامات)
فقام من المعنين الامير ملحم يثار لاهله ، فووقت الحرب بين
القيسية واليمينية ، حرب العصيات ، التي ارادت الدولة ان
تثيرها . ثم سمعت شكاوي الناس دامعة العين . وبما انها لم تتمكن
من القبض على الامير ملحم قتلت نسيبه الكبير الامير نخر الدين .
هو نخر الدين الكبير ، علم الوطنية الحققة ومشعلها الاوحد في
تار يخنا الحديث .

وكان في ذلك الزمان متوليا بدمشق درويش الشر كسي
الذي بكت من مظالمه الناس .
ومن الشر كسي هذا الى اسعد باشا العظم ثالث ولاية الشام
من هذا البيت مئة سنة ونيف (١٦٣٨ — ١٧٤٤ م .) من
الولايات والنكبات ، أعد منها ولا اعددها .
— وفي سنة ١٦٧٥ أحرقت قرى البترون . ثم في السنة

التالية أحرقت بلاد جبيل وخلت من سكانها .

— وأمر والي طرابلس ابن حماده بأحراق وادي علمات وقرى جبة المنيطرة .

— وفي سنة ١٦٧٩ (١٠٩٠ هـ) تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية .

— وبلغ ظلم والي دمشق حداً لا يطاق فأقفلت المدينة مرتين احتجاجاً عليه .

— واشتد ظلم بني حماده في جهة طرابلس فتغربت القرى ونكبت الناس .

— وكانت العصيتان القيسية واليمنية لا تزالان في قيد الوجود ، بل في قيد الفتن والقروء ، فتحارب اليمنية مع المتأولة والدرروز ، وتُظاهر القيسية آل شهاب .

وكان الشيخ محمود ابو هرموش القيسي ، الخارج على القيسية ، متولياً على اليمنية ، حاملاً على خصومها ، فقام الامير حيدر الشهابي بجيش من القيسية فباغتوا بني علم الدين وابا هرموش وجنودهم ليلاً في عين داره ، واعملوا فيهم السيف ، فما سلم منهم غير القليل . « وفي تلك الليلة قُتل خمسة امراء من بني

علم الدين ، وأمسك الشيخ محمود ابو هرموش ، وقطع الامير لسانه وأباهم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم امرهم ، ونزع من كان يميناً من البلاد .

— وعينت الدولة متسلماً على حماة (١١٠٦ هـ : ١٦٨٥ م)
اسمه اسعد بن مزيد ، فكانت مظالمه مزيد ، كل يوم . فقام الحمويون واخرجوه من البلد قهراً ، فارسلت الدولة تؤدب النافرين ، وتمثل بهم ، ولسان حالها يقول : اخضعوا لعالي منها كانت سيرتهم واتقوا بطشي !

— وفي هذه السنة (١١١٩ هـ : ١٦٩٨ م) نهب الامير يوسف علم الدين مع عساكر الدولة بلدة غزير واحرقها . وفي السنة التالية غزا الامير حيدر الشهابي بلاد المتأولة ، فتجمعوا بالنبطية للدفاع ، فظفر بهم هناك ، وقتل منهم جمعاً غفيراً .
— « وسار والي دمشق الى عجلون ، وباغت بلاد نابلس ، وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، وسبي عسكره نحواً من سبعة اجزاء » .

وكان الفقراء يهجرون البلاد هرباً من الظلم والتسخير ، فامست القرى المعمورة ، والقصبات المشهورة ، ركاماً من

الطلول الدوارس . اما اذا حاول الاغنياء الجلاء فالوالي يسوق عليهم جنوده ، فينهبونهم ويسبونهم . ولا غرو . فمن اين يجيء الخراج اذا هجر الاغنياء البلاد ؟

— وكان الوالي — والي حماة مثلاً — اذا غضب على رجل يضعه على الخازوق ، واذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع شيء من الكلس والقها في نهر العاصي .

— وكان الامير المتسلم في جهات لبنان اذا غضب على رجل عاقبه بقطع اشجاره او بحرق قريته .

— « واصبح الناس يتظاهرون بالفقر فيكتمون اموالهم ويدفنونها في الارض لتنجو من المصادرات والسرقات » .

— وفي هذه السنة (١١٦٠ هـ : ١٧٤٦ م) احرق اسعد باشا العظم قري البقاع لان اهلها تأخروا عن دفع الاموال الاميرية . وقد حدث في عهده فتنة بين الدالاتية والانكشارية فاعمل الباشا السيف في العصاة ، وسلب جنوده الدور واحرقوها .

قال المؤرخ : « وبقيت المشقة اياماً لا تخلو من مصلوب ، وتركت جثث القتلى اياماً امام السرايى تأكلها الكلاب ، وسلخوا رؤوس القتلى وجعلوها اكواماً ، وصارت المدافع تطلق

بكراً وعشية مدة شهرين ، وكثر العزف بالابواق واطلاق
الاسهم النارية في الفضاء «

يسلخون رؤوس القتلى ويعيدون اكراماً للبasha اسعد الذي
انتصر على اعداء الدولة . . .

انت سورية بلادي ،

وانتم ايها الطغاة العتاة اجدادي !

الفصل السادس عشر

الدرك الأقصى

ذكر صاحب «الخطط» ثلاثة اسباب لشقاء البلاد السورية في الدور العثماني ، وهي ظلم الولاة الذين كانوا يرتشون ليرشوا الوزراء ، وظلم الجنود الانكشارية الذين كانوا يصادرون ، وينهبون ويهتكون حرمة البيوت والاعراض ، وظلم صغار الامراء من اهل البلاد ، اي اصحاب الاقطاعات في الجبل واولي النفوذ في المدن .

وقد فاتته ان يذكر السبب الاول والاهم اي الجهل — الجهل الذي كان مخيماً على طبقات الامة كلها .

خرجت اوروبة من العصور المظلمة قبل وصول الاتراك الفاتحين الى حواشيها الشرقية ، فظهر فيها العالم والمصلح والمخترع والمكتشف ، بينما رعايا هذه الدولة التترية ظلوا مقيدين بقيود الجهل ، ومسوقين بسوط الظلم الى كل ما فيه تحقيق اهواء حكامها وشهواتهم .

فلولا الجهل لما كان الظلم . لولا الجهل لما كان الشقاق

والتعصب والضعف والخنوع . ولولا الضعف والخنوع لما استطاعت تلك الدولة الاتيعة ان تحكم رعاياها المتعددة الاجناس والاديان باذئاب الحيل ، ^(١) بالاطواخ

الى هذا الحد بلغ احتقار الدولة لمن يدفعون خراجها . والانكى من ذلك ان خراج بعض الالوية كان مخصصاً لبعض نساء القصر اي نساء السلطان الثمان الشرعيات ^(٢) (وقد خصص ريع ايلة الشام للمرأة السابعة افكن يعين جابة من قبلهن يجبون حصتهن ، وكثيراً ما كانت تجبي مرتين .

— وهوذا الطوخ جاء يشير بقدم الوزير . هاتوا المال ، والارزاق ، وتعالوا قدموا قروض الطاعة .

(١) الطوخ ذنب حصان معلق من اسفله في رأس عصا نحو ثلاثة اذرع وشعره مسدول عليه . فاذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقباله ويهيئون ما يلزم له ولخاشيته وذوا به . ويمشي امامه في السفر طوخان اثنان . — الخطط ، الشام الجزء الثالث ، صفحة ٥ .

(٢) وكان يقرر جعل النساء الرسميات اربعة ثم ابلغت والدة السلطان (ابراهيم الخليل) عددهن الى ثمان نساء لان نسل بني عثمان كاد ينقرض . — الخطط ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٦٧ .

اما الذي لا يتبرع بشيء لنفقات الضيافة - وكسب المضيفين - ولا يعقر الوجه ليظهر اخلاصه للسدة الشاهانية العالية فهو من الخونة ، هو خائن الملة والوطن ، والويل ثم الويل له .
لنعد الى التاريخ ، وقد تركنا المخلصين للعرش والملة في الشام يسلمون رؤوس الخونة ويعتدون .

وكان والي دمشق في اواخر القرن الثامن عشر يحارب الجزائر ، والامير بشير يحارب الامير حيدر في لبنان ، وقائد الاسطول العثماني ينصح لمسلمي بيروت بذبح النصارى ، والانكشارية في حلب يذبحون الاعيان والاشراف ، والجنود الدالاتية ينهبون قرى دمشق ويغربونها . والدولة راضية بهذه الفوضى ، بهذه الفتن ، بهذه النكبات البعيدة عنها بشرط ان يقدم اربابها للسدة الشاهانية ما عليهم من الطاعة والمال .

وهوذا القائد الافرنسي الشهير يحيى بعد كسره بمصر (١٢١٣ : ١٧٩٨ م) ليختم في سورية عهد البلاء والفوضى^(١) .

(١) وقال اللبنانيون نصارى الشرق : جاء مخلصنا . وبادروا اليه بالهدايا مرحبين متملئين (كما تمهل نصارى دمشق لقعود هولاء) ولكن القائد الافرنسي لم يكن مشغوقاً باللبنانيين . . .
جئنا بليلي وهي مُجَنَّت بغيرنا -

٧ (النكبات)

فيفشل عند اسوار عكا ، ويفتك بعسكره الطاعون ، فيأمر — وهو مثل كل الفاتحين — بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره كي لا يعوقوه في تفتيره .

لم تتغير احوال البلاد بعد ارتحال نابوليون بوناپرت . وكيف تتغير وفيها الجزار المشهور الذي حكم بامره وسيفه تسعاً وعشرين سنة ، فجعلها جنة غناءً حين فيها عباد الله . جنوا مما كانوا يسمعون ، جنوا مما كانوا يرون ، جنوا مما كانوا يقيسون ، جنوا من جنون هذا الاجنبي البشاقى الذي جاءنا هارباً من مصر ، وكان فيها من جماعة الامير الحاكم علي بك .

حكم احمد البشاقى الجزار تسعاً وعشرين سنة (١٧٧٥ — ١٨٠٤ م) . فبرز بمظالمه على كل من تقدمه من الظالمين ، ولحقت جرائره بالمسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء . افي اكتفي بذكر مثاين منها :

استهل الجزار حكمه في عكا بأن ملاء السجون من جميع الناس ، الفقراء والاغنياء والعمال والعلماء واصحاب الحرف وكتبة الدواوين . وذلك ترويعاً للرعية . ثم امر ارباباً لها بقتلهم اجمعين . — « وطرحت القنلى كالغنم خارج عكا ونادى المنادي :

تعالوا ادفنوا موتاكم ، وكل امرأة ترفع صوتها تقتل حالا » .
 كان الجزار يكره الناس جميعاً ، وكان كرهه الاشد للنساء .
 حج هذا السفاح مرة فحدث في أثناء تغيبه حادث بين حريمه
 ومماليكه ، علم به عند رجوعه . فابعد الممالك ، نفاهم ، ثم أمر
 بأن تُشب النار في ساحة القصر . وجاء العبيد بالنساء نسائه ،
 الواحدة تلو الاخرى حتى بلغ عددهن ثلاثين . وكان العبيد يلتقون
 بالواحدة منهن الى النار المتأججة ، فيتقدم الجزار ويطأ ظهرها
 وورقتها يجزمته . كذلك فعل بالثلاثين اللواتي تحولن رماداً
 امام عينيه .

وكان ابن عثمان ، السلطان الجالس على العرش بالاستانة ،
 راضياً عن احمد البشناقي الجزار لانه كان يحسن جمع الخراج ،
 ويضيف اليه في بعض الاحايين شيئاً من ماله الخاص . والجزار
 هو القائل : « السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه اكثر » .
 قبل ان نودع الجزار ، الغريب الاطوار ، المكون من ظنين
 ومن نار ، يجب ان نذكر ، فلا نظلمه ، ما ذكره صاحب
 « الخطوط » اذ قال : « لا جرم ان التبعة في بعض اعماله تعود على
 عماله ومماليه ، واكثرهم من ابناء هذه البلاد الذين افسدتهم تلك .

العصور وباءوا بالنقص والقصور^(١).

ويجب ان اذكر حسنة واحدة شاهدت أثرها عند ما زرت
الجامع الكبير بعكا . هناك مكتبة فيها الكتب ، واكثرها خطية ،
التي جمعها الجزار رضا^(٢) او قهرآ كما كان يجمع الخراج . أليس من
الغريب العجيب ان يكون هذا الرجل مولعاً بالكتب مبالغاً في
جرزها ؟ — هذا الكتاب وقف احمد باشا الجزار ، لا يباع
ولا يعار ولا ينقل — . هي الكلمة المطبوعة على كل مجلد من تلك
المكتبة^(٣).

ولم يكن الجزار منقطع النظر في ذلك الزمان . إلا انه كان
اشهر الجزارين واغريهم اطواراً . فهذا بربر (البربري) القلموني

(١) أو لا تذكر ايها القاري . جزاراً آخر جلس بدمشق في العقد
الثاني من هذا القرن السعيد ، وأمر بنصب المشائق فيها وفي بيروت ،
وكان من عماله ورجاله نفر «من أبناء هذه البلاد» الكبار الذين أفسدتهم
تلك العصور وباءوا بالنقص والقصور^(١) ؟

(٢) «وقف وحبس ومبّل هذا الجزء من (البخاري الشريف
مثلاً) الحاج احمد باشا الجزار في جامع المسمى بنور الاحمدية وفقاً
صحيحاً شرعياً وشرع ان لا يباع ولا يرهن ولا يتقرب عن محله [فمن
بدله بعد ما سمعته فأنما الله على الذين يبدلونه] سنة ١٢١٠»

حاكم طرابلس ، احد اولئك الذين كانت تعول الدولة عليهم في إخضاع البلاد بأية طريقة كانت ، خصوصاً بالقضاء الفتن واثارة الحروب بين امرائها .

وهوذا جزار آخر هو جبار زاده جلال الدين باشا والي حلب (١٢٢٧ هـ - ١٨١١ م) الذي كان يجمع الاموال بالسيف « ولا يكاد يمضي يوم الا ويقتل انساناً » .

وكان لهذا الجزار طريقة جديدة في التغريم والارهاب . قال المؤرخ : « ان ابن جبار كان يرسل من طرفه اثنين حاملين بلطة يأتیان بمن تجب مصادرتة ، فيزج في السجن ، ويوضع في رقبته سلسلة لها شوكة ، ثم يطالب بما قرر عليه . فاذا لم يدفع في ثلاثة ايام يُخنق ويرمى تجاه باب القلعة . وكلما خنقوا واحداً اطلقوا مدفعاً ، فكان يُعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع » .

وهوذا صاحب السعادة في السوق يتفقد شؤون الرعية . يمشي المويناء محققاً في الفضاء ، وقد مشت العصا كره والبلطجية عن يمينه وعن شماله . ثم يدير بوجهه الى احد التجار ، فيبادر البلطجية اليه ويضربون عنقه ؟ . . . هنيئاً لمن يرمقهم الباشا

بنظرة من نظراته . وكان كل مرة ينفق شؤون الرعية يدير
بوجهه ثلاث مرات فيقع التعطف العالي على ثلاثة رجال ولا
ذنب لهم غير ما يريد من ارهاب الناس . لا اظن جزار عكا على
غربة اطواره وفضاعتها كان يحسن الاختراع مثل جزار حلب في
التخريم والارهاب .

ومن الجزار البشاقى الى الدستور العثماني (١٩٠٨ م) .
مئة سنة كاملة تمثل في الشطر الاول منها حرب الطوائف شرّاً
تمثيل ، وامتاز الشطر الثاني بامتيازات الطوائف في لبنان ، تلك
الامتيازات التي كانت بنتائجها شرّاً من الحروب لانها عززت
التعصب الديني عدوّ الإنسانية الاكبر .

اما اهم الحوادث في الشطر الاول من القرن التاسع عشر
فهي التي ابتدئ بها ابراهيم باشا المصري الذي جاء هذه البلاد
صائلاً فاتحاً ، وتنتهي بمذابح السنة الستين . وهل من صلة بين
الحادثتين ؟ اجيب : نعم ، بل اعتقد انه لولا مجيء ابراهيم المذكور
لما كانت تلك الحوادث . وهاك البرهان :

كان ولا يزال ابنا هذا الجبل يتقادون كل الانقياد الى

رؤسائهم الدينيين والمدنيين . وقد اوسعتك علماً بهؤلاء الرؤساء
لئلاً كد انهم في كل حياتهم ، وكل ادوارهم ، لم يهتموا لغير
مصلحتهم الخاصة ، ولم يكونوا حتى في ذلك من الحكماء دائماً .

دخل ابراهيم باشا البلاد فاتحاً منتصراً (١٨٣٠ م) . وكان
الامير بشير الشهابي الملقب بالكبير مع ابراهيم ، وكان ابراهيم
والامير يحاربان الدولة العلية ، وكانت فرنسا سياسياً معها .
وفرنسة ، « امنا الخنون » تسمس لنا دائماً بالطيبات - بالمذابح ؟
ساعدوا ابراهيم تنجوا من الترك ؟

نزل رجال لبنان الى الميدان . وكان الدروز يومذاك مع
الدولة ، او بالحري كانوا اعداء الشهابيين . هي اليمنية والقيسية
تبعثان ثانية وتستأنفان القتال . اما ظاهر الامر فهو ان الدروز
كانوا مع الدولة على ابراهيم وانصاره . فسجلت الدولة هذه
المكرمة للدروز - ولم تنس نصارى الجبل . هذي هي بذور
الستة الستين وما تقدمها من المذابح .

وقد كان الامير بشير ينفذ اوامر ابراهيم في من خرجوا
عليه ، فحل على اهالي عكا والحصن وصافيتا حملات موفقة .
وغزا جبال النصيرية ففتحها وأحرق عسكره ثمانين قرية من

قراها . صرنا في القرب التاسع عشر ولا تزال فطرنا فطرة
الحثيين والفينقيين والشركس والتراكين .

اما سيد الجميع ابراهيم فقد أرقق الناس بالضرائب ، وضرب
على ايدي اصحاب الاقطاعات فقصى على سيادتهم ونفوذهم ،
ووضع قانوناً للتجنيد الاجباري وشرع في تنفيذه ، ففر منه جميع
السوريين ، الخاصة منهم والعامة .

وقد ابى دروز حوران تجنيد اولادهم فارسل عليهم الفاتح
الحملة تلو الاخرى ، وفيها من ابنا لبنان (كما فعلت الدولة المنتدبة
امس في مرجعيون وراشيا) فاشتد الغل بين الفريقين .

وبعد ان رد الدروز تلك الحملات مدحورة صم ابراهيم على
تسميم الآبار بمحلول السليماي ليحصلهم على هجر الديار ، فعلموا
بذلك ونزحوا الى اقليم البلان .

وكانت السياسة الاوروبية آخذة في التطور والتلون على
عادتها ، فانفقت انكلترة وفرنسة ^(١) على ابراهيم (كما انفقتا امس

(١) عندما زحف ابراهيم باشا الى الاناضول بغاة الاستيلاء على
الاستانة ، كانت الدولة البريطانية تسعى في الاستيلاء على عدن لتكون
محطة بحرية في حثرتها الى الهند . وكانت الجنود المصرية لا تزال محملة

على الثوار السوريين) وضربت المدرعات البريطانية عكا ، فقام
اذ ذاك الموارنة الذين كانوا مع الفاتح المصري يلبثون دعوة
رؤسائهم الدينيين والمدنيين للعمل الذي فيه ارضاء « الام الخنون »
ووضون مصالح اصحاب الاقطاعات .

نعم ، انقلبت فرنسة على ابراهيم فانقلب الرؤساء المحترمون
معه . وقام المشايخ والامراء ، النكديون والعيون وبعض
الشهابيين ، يشقون عصا الطاعة على الحكومة المصرية ، لا دفاعاً

عسيراً وتهامة ، فحاولت الدولة مراراً ان تخرجها منها ، وحاربت ابراهيم في
سورية فكانت في الحالين مدحورة . عندئذ فكر السلطان مجيد في امر
السلطنة لفكراً حسناً ، ففتح شركة الهند الانكليزية الامتياز بمعدن —
ذلك الامتياز الذي كانت تطلبه حكومة بريطانيا العظمى . فكتب
عقيب ذلك (١٨٣٨ م) رئيس الوزارة يومئذ اللورد بالمستون الى محمد
علي باشا يقول ان لا حق لمصر في البلاد العربية فيجب ان يسحب
جنوده منها . وكان كذلك . خرج المصريون من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠
وقد قامت الحكومة البريطانية بشرط الامتياز الثاني فاستألت فرنسة اليها
في سياسة سورية ، وساعدت الدولة مساعدة حربية سيئة ضربها عكا
لاخراج ابراهيم من هذه البلاد . تالله ما تفعل عدن . لقصة في ثم الاسد
البريطاني تغلص عسيراً وتهامة وبلاد الشام من قبضة محمد علي وابنه ابراهيم
وتعيدها كلها الى الدولة العثمانية ١

عن حقوق الامة ، بل استرجاعا لحقوقهم الاقطاعية التي كانت قد
أبطلت وكادت تزول .

مساكين من ينقادون للاكليروس والامراء . ظن اللبنانيون
انهم يسترضون الدولة في نهوضهم مع من نهضوا ، ليخرجوا
الفاتح المصري من البلاد . ولكن انقلابهم لم يغنهم لدى الترك
شيئاً . قد كتب ما كتب .

بعد خروج ابراهيم باشا وسقوط الامارة الشهابية (١٨٤٢ م)
وبعد تعيين عمر باشا النمساوي حاكماً على لبنان ، واجماع اللبنانيين
على رفضه واحصرارهم على ان يكون الحاكم وطنياً ، قسمت الدولة
البلاد ، عملاً برأى حكومة النمسة ، الى قائميتين ، جنوية
وشمالية ، يحكم الاولى امير ارسلافي ويحكم الثانية امير لمعي .
فوسعت شقة الخلاف بين الدروز والنصارى ، وطفقت تضرم
بواسطة عمالها نيران الفتن الطائفية ، فدارت الدوائر لأول مرة
على الاقليةين المسيحية والاسماعيلية (وهؤلاء الاسماعيليون او
العلويون هم اخوان الموارنة في حب الاجانب وفي البلاء) .

عاد ارباب النفوذ والاقطاعات — هم الحكام الوطنيون —
الى سالف مجدهم وشروهم ، واستخدمت الدولة الدروز منهم لتنفيذ

ماربها بل للأخذ بثأرها ، فكانت تنزع السلاح ممن تروم
تذيعهم في هذا السبيل . اذن ليس بعجيب ان ثلثو المذابح مثل
هذه الحال . فقد كانت سنة ١٨٤٥ مقدمة للسنة الستين ، وكان
انتصار الموارنة لابراهيم السبب الاول في المذابح التي حدثت
بعد جلالة بخمس سنين ، فاعمل الدروز سيف الدولة برقابهم ،
ودخل جنود الدولة الجبل مفتحين . — اتساعدون ابراهيم عدو
الدولة وانتم من رعاياها ؟ !

روي عن قنصل انكلترة بيروت انه قال : « يوجد في سورية
اثنان كبيرتان هما المسيحيون والدروز . فكلا ذبح احدهما
الآخر استفادت الحكومة العثمانية » .

ولكنني اعتقد واثقن — وقد جئت بالبرهان القاطع — انه
لو لم يحارب الموارنة مع ابراهيم باشا لما كانت مذابح سنة ١٨٤٥
ولو لا هذه المذابح لما كانت « سنة الستين » . لله من تاريخ هو
سلسلة من الانتقامات !

وها كم ساسة اوزوية يبادرون الى حماية نصارى الشرق ،
وفي رأس الحماية تجارتهم (اى تجارة الاوروبيين) ومصالحهم
السياسية والاقتصادية .

فتبع المذابح في لبنان خمسون سنة من الامتيازات ، امتيازات
القناصل لا اللبنانيين . والاجدر بتلك الحكومة ان تدعى
« حكومات القناصل » قناصل الدول الحامية ، اولئك القناصل
الذين كانوا يلعبون بأعيان لبنان وبرؤسائه لعب الكرة ،
ويستمعون في لبنان بما يقصر دونه جاه السفراء بالاستانة ،
ويستشرون ضغائن الطوائف ومطامع رؤسائها لمنفعتهم ومنفعة
دولهم الخاصة .

وتلت حكومة القناصل حكومة الدستور العثماني . فقام في
لبنان من يدعون للاشتراك بالدستور ولأرسال مندوبين لبنانيين
الى البرلمان بالاستانة . فإني اللبنانيون وكانوا على « ادبتهم » تابعين
عماوة لرؤسائهم وزعمائهم الذين يؤثرون المصلحة الخاصة
دائماً على مصالح الوطن كلها .

رفض لبنان الاشتراك بالدستور . رفض التنازل عن
امتيازاته وقناصله (وقد تنازل عنها بعد بضع عشرة سنة لدولة
فرنسه فأعطته بدلاً منها جمهورية نفخة ضرائبها لا تعد) .

وذهب الدستور العثماني مع الادهيين . وظل سياسة الترك
الاتحاديون والائتلافيون يذكرون اللبنانيين بالخير ! فجاءت الحرب

الغضبي ، وجاء الحصار ، بل جاء الحساب . كانت المجاعة وكان التجويع .

فلو كان لبنان دستورياً في ذلك الحين هل كان خسر ياترى اكثر من خسارته بعد زوال الدستور ؟

اني اسالك سؤالاً آخر : لو كان لبنان دستورياً في ذلك الحين هل تظن ان جمالاً كان فعل باهله ما فعل ؟

اذا كان في التاريخ فائدة ما فهي في هذه الدروس التي يلقىها علينا . هي في الامثلة التي تعلمنا ان يجب ان نتمتع بمساوي الماضي هي في الامثلة التي تعلمنا ان من الائم ان نورث ابناءنا ما ورثناه من مساوي الماضي . هي في الامثلة التي تعلمنا ان لا يجب ان نضل محذرين الى الابد باوهام التاريخ ، ولا يجب ان نسقم عقل الامة الى الابد بسمومه . يجب ان نعرف الحقيقة كلها ، فنستير بها اذا كانت خيراً ، واذا ما كانت شراً ننبذها وننتقي امثالها .

وها قد وصلنا الى يومنا هذا ، وهو يوم من الايام التي سردنا تاريخها . وها ان البلاد بلادان سورية ولبنان . سورية المجاهدة ، ولبنان المتقاعد . سورية الدامية ، ولبنان المتفرج . سورية النازعة

الى الاستقلال ، ولبنان القانع بخيال من الحرية والاستقلال .
بل ترانا نعيد اغلاط اجدادنا ، فيعيد التاريخ نفسه في راسيا
وكوكبا ومرجعيون . وتستخدمنا دولة افرنجية لاغراضها كما
كانت تستخدمنا الدولة العثمانية .

فهل تصفونية السوري فينسى الاجداد الذين يشيد على
الدوام بمفاخرهم ، وينسى الدول الاسلامية التي يتغنى على الدوام
بامجادها — وقد عرف من هذا التاريخ حقيقتها وحقيقتهم —
وينصرف بكل قواه ، وكل عقله ، وكل قلبه ، وكل ما لديه من
اسباب العمل الى ما فيه خيره وخير اخيه اللبناني على السواء قبل
كل شيء ؟

وهل ينبذ اللبناني رؤساءه وزعماءه الذين انتقاد لهم في عهد
الدستور ، وفي ايام ابراهيم باشا — وفي هذا العهد ، عهد الانتداب
الحديث — ورأى بأم عينه نتيجة انقياده المفجعة ؟

اخواني ، ابنا هذه البلاد سهلها وجبلها وساحلها .

هل نظل مقيدين على الدوام بقيود الاجداد ، بل بقيود
الخوف والجهل ، والتعصب والالوهام ؟ هل نخدم على الدوام
مصلحة السادة الرؤساء ، المغممين والمقلنين ، التي نظنها مصلحة

الوطن ؟

هل نخدم على الدوام مصلحة المستبدين التي نعلم حق العلم

انها تنافي مصلحة البلاد ؟

هل نرضى بخيال الجمهورية ونساعد في خنق كل امل من

امالنا الوطنية القومية ؟

وهل نرضى بان نقول : انا اخوانكم ، لكم ما لنا وعليكم

ما علينا ، ولا ننبذ من قلوبنا كل غل قديم وكل حقد ديني ذميم ؟

* * *

اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها !

اننا لا نزال في دياجى الليل ولا نزال المحجة بعيدة .

اننا لا نزال في ظلمات قُدت من ظلمات الماضي .

اننا لا نزال في اغلاط هي احدى اغلاط الماضي .

اننا لا نزال نئن من شرور هي بنات شرور الماضي .

اي لبنان بلدي ، اي سورية بلادي ، ان فيكما اليوم

رؤساء وزعماء هم من سلالة رؤساء وزعماء الماضي .
 وان فيكم شعباً طائعاً قانعاً ، يائساً بائساً ، محوقلاً مستسلماً ،
 هو متحدر من أولئك الذين كانوا في الماضي يدفعون الخراج ،
 وياكلون الكرباج .

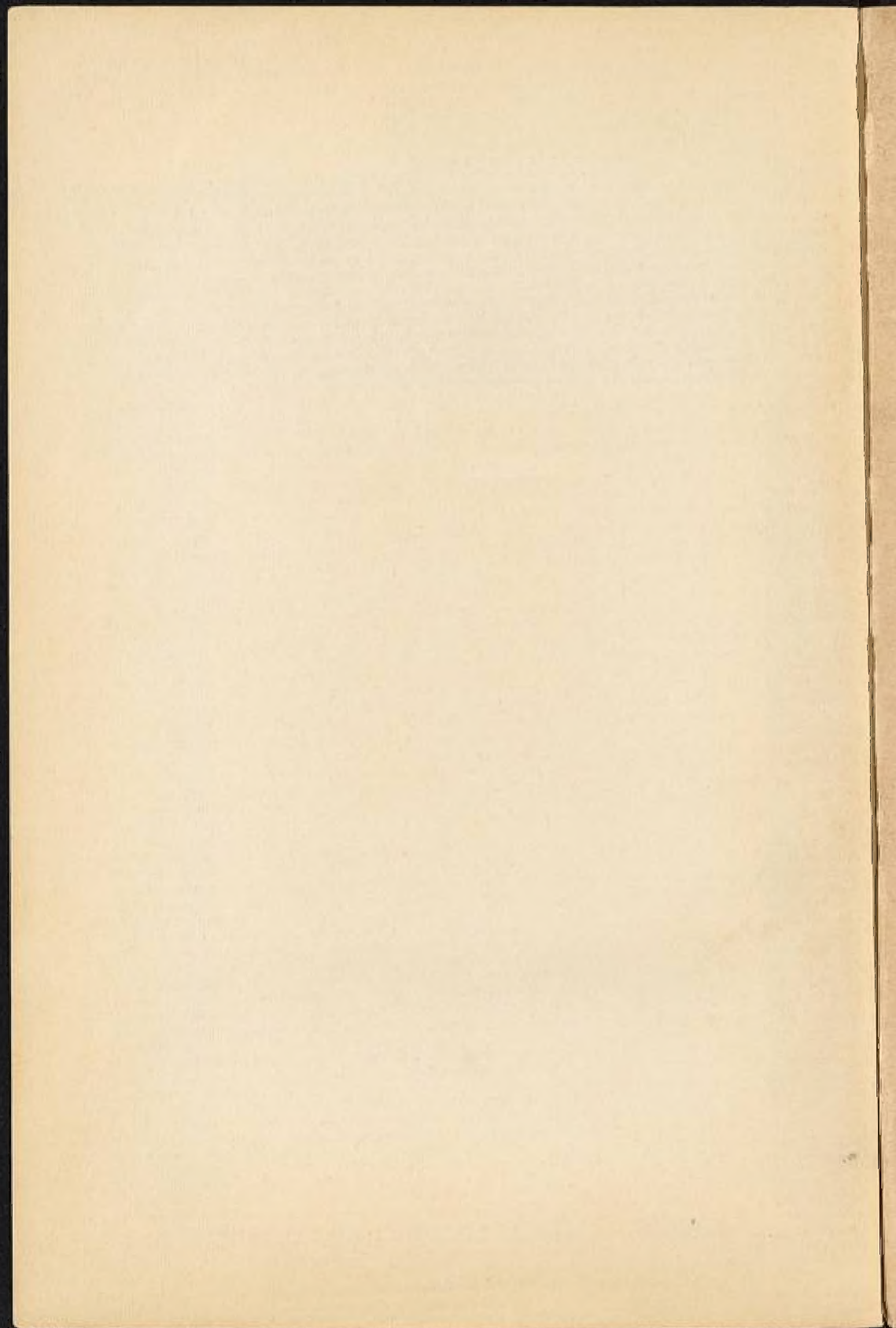
« والطقس جميل

والهوا عليل

والليل طويل

نعمة كريم^(١) »

(١) من أغنية لعمر الزعني شاعر الشعب والوطن



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038556073

This book is due ~~two weeks~~ from the last date stamped below, and if not returned at or before that time a fine of five cents a day will be incurred.

NOV 3 1930

DEC 15 1930

3 FE '47

JUN 08 2003

MAY 06 2003

with

893.718

R449

Rihani

Al-nikabat al-khulasat ta'rikh

~~Constantin~~

893.718

R449

من مؤلفات الاستاذ الكبير امين الريحاني

الريحانيات

اربعة اجزاء وثمن الجزء ١٢٠ غرش ذهب عثماني

تاريخ نجد الحديث

ويليه سيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

مزين بالرسوم والخرائط

ثمنه ٣٥ غرشا ذهبيا

ملوك العرب

« الطبعة الثانية »

جزءان تحت الطبع

ثمن كل جزء ٣٠ غرشا ذهبيا

تطلب هذه الكتب من ادارة مجلة الكشف ومن

يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية

في بيروت

ثمن هذا الكتاب ٥ غروش مصرية